الوعد والمقسوم

رواية

سمير لوبه

الوعد والمقسوم رواية سمير لوبه

رواية من ثلاثة فصول
تدور أحداثها في الإسكندرية في الفترة من ١٩٥٦ حتى ٢٠٢٢ م حيث تبدأ بمسن يعود من غربته بعد سنوات طوال فتجتاحه موجات الذكريات ليقص علينا قصة حياة مجموعة من البسطاء الذين لفظتهم أرحام أمهاتهم إلى حياة تخدش جلودهم بأظافرها في قسوة وتطحنهم رحى الأيام بلا شفقة أو رحمة ، وتمنعهم السعادة إلا أنهم يصرون على الحب والتضحية . تقهرهم الظروف في دراماتيكية مدهشة . يتخلل الرواية أحداث تاريخية وتحولات سياسية في مصر ربما كانت ضالعة بطريق أو بآخر فيما يواجهون .. تتعدد الأماكن في وصف دقيق للشوارع والحارات السكندرية إبان تلك الفترة وتتطور الشخصيات في الأحداث من خلال مواقف تعلو فيها الدفقة العاطفية أثناء صراعها مع الأحداث .. كما ترصد الرواية بعض من العادات الشعبية القديمة التي تلاشت مع الزمن كل ذلك في سرد روائي شيق جميل .

الوعد والمقسوم

رواية

بقلم سمير لوبه

الطبعة الأولى 2023
ISBN: 9789189288843
الإيداع القانوني لدى المكتبة الملكية السويدية: 2023-08-26-17-38
الناشر: رقمنة الكتاب العربي- ستوكهولم
السويد، فاستراء جوتالند
البريد الإلكتروني:
arabiskabok@hotmail.com

صدر هذا الكتاب بالتعاون مع الاتحاد العالمي للمثقفين العرب.

© جميع الحقوق محفوظة لدى دار نشر رقمنة الكتاب العربي- ستوكهولم، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تقليده، أو تخزينه في نطاق إستعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر.

إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي الكاتب ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.
والمؤلف هو المسؤول عن المحتوى

إهــداء:

إلى مهد الحب وأطهر قلب.

كم أحن إلى عطرك يا أمي

مقدمة:

الحياةُ التي لا تُمتحَن بالتحدياتِ هي حياةٌ لا تستحقُ أن تُعاشَ

(ڤولتير من مسرحية سقراط)

(١) على شط بحر الهوى

من مطار برج العرب في الإسكندرية. مسن تجاوز الثمانين يلفه معطفه الأنيق. يتكئ على عصاته يغادر بوابة المطار. له ملامح هادئة. ينظر إلى الأفق؛ يفتر ثغره باسما يفتح صدره يستنشق الهواء فيملأ رئته. تجتاحه دفقة شعورية مضطرمة، ثم يزفر زفرة حارة؛ في داخله أشواق ملتهبة لا تنطفئ؛ يشده الحنين للغوص في أعماق مدينته الحبيبة؛ فلم تستطع حلاوة الكرز في غربته أن تنسيه طعم التوت في موطنه، تحوم روحه محلقة تبحث عن ذكرياته في الإسكندرية؛ يتوق شوقا لشوارعها وحاراتها العتيقة؛ ليستنطق بيوتها فتحكي له عمن رحلوا من الرفاق والأحباب؛ يرغب في أن يفترش أرصفتها ينصت لحديثها الصادق؛ فينساب حديث الشوارع والحارات الصامت إلى أذنيه؛ ليبكي أياما ضاعت في دروب الغربة بعيدا عن الأحباب. في الغربة حيث حط بك المقام إذا أطلقت لخيالك العنان ليهيم في دروبها القاحلة تستطيع أن تستنطق وجوها قد باعدت بينك وبينها المسافات والسنوات في جدل سفسطائي عقيم؛ فظمأ الأرواح لا يرويه ماء. يود أن يبكي ويرتمي في أحضان أحد الكبار ليربت على كتفه فيطمئن ويهدأ، ولكن الحقيقة القاسية أنه صار أحد الكبار، وبينما هو غارق فيما هو فيه فإذا بسائق سيارة ليموزين سياحية يفتح له باب السيارة:

- حمد لله على السلامة.
- الله يسلمك يا ابني. المنشية من فضلك.

يركب "علام "السيارة؛ وينطلق السائق. لم يكن علام يدرك مدى اندهاشه وفرحته بالعودة، وشغفه بطفولية لرؤية مدينته الحبيبة. من آن لآخر يخرج رأسه من شباك السيارة الليموزين يهز رأسه تلقائيا، والسائق يقود السيارة منسجما مع نغمات الموسيقى المنبعثة من إذاعة الأغاني ينتبه علام فجأة للموسيقى يتسمعها بانسجام وخفة. ينظر السائق من خلال المرآة:

- لك كتير خارج مصر يا باشا؟
- أكثر من عشرين سنة في أمريكا.

يخفض السائق صوت الإذاعة قليلا، يسترخي علام. يردد بصوت خفيض:

- يا سلام إسكندرية جميلة فعلا. إسكندرية ماريا. يرن الموبايل؛ أخذ يتحدث:
- نعم وصلت. اطمئنوا كل شيء على ما يرام. بمجرد وصولي للأوتيل سأخبركم.

ويهز رأسه نفيا وإيجابا، ثم علت وجه ابتسامة عريضة وأغلق الخط. يعود ليستمع للموسيقى:

- ارفع الصوت قليلا من فضلك.

تنساب لأذنيه موسيقى الأغاني تثير في نفسه عبق الذكريات يغمض عينيه؛ يستمتع بالموسيقى الهادئة. تمتلئ عيناه بالدموع فجأة. يراقبه السائق في صمت عبر المرآة. يمد علام يده في جيبه؛ ويخرج منديلا يمسح دمعات امتزج فيها الفرح والحزن معا. يخفق قلبه تزداد ضرباته. يقشعر بدنه حنينا للوطن مع اقتراب وصوله للإسكندرية. يجد السائق منفذا للكلام معه:

- هل تريد أوتيل معين يا باشا.
- ليس بالضبط. أي فندق يكون في المنشية؛ لأكون قريبا من بحري.

كانت الطريق في الخارج تجري أمام عينيه في سرعة. تنهب السيارة الطريق نهبا بينما يتابع علام جانبي الطريق. تدخل السيارة من عند "كارفور" تستلم شارع قناة السويس لتمسك طريق الكورنيش من الشاطبي. بشغف وحنين جارف يتابع من نافذة السيارة، وما أن وصلت السيارة إلى طريق الكورنيش حتى عانقت عينه البحر بلهفة طفل؛ تحلق ذاكرته عبر المسافات البعيدة.

*****

مطلع الخريف، وفي ولاية ميتشغان شمال شرق الولايات المتحدة الأمريكية. مكللا بالغيوم يأتيه صباحه؛ يُبعث من رقاد عميق، يتجه للنافذة متثاقلا؛ تتساقط منه نظرات متثائبة؛ ربما وجد ما يثير دهشته. تدور عيناه مع دوران عقارب ساعة ناعسة، يسيل الضوء ببطء على زجاج النافذة، يعتصر روحه المرهقة فكره المثقل بذكريات الماضي. يمسك بعصاته، وبابتسامة تخالطها مرارة قهوته يقابل نهارا آخر. يخرج "علام" من بيته يعتمر قبعة. مرتديا بنطالا وسويتر، ويطوق رقبته كوفية حريرية يتأبط مظلته، وعلى العكاز يستند. يركب سيارته، وفي الطريق يدير مفتاح الراديو يسمع فالس الخريف لعازفة البيانو "شوشانا ميشيل "؛ تعانق روحه أحضان الذكريات، تقف السيارة على حافة الطريق؛ ينزل منها متوجها لبحيرة سانت كلير الكبيرة. بين الأشجار يسير متوكئا على عكازه. وحيدا يسير في غربة الأبجديات، تلقي الأشجار بالأوراق تتلقفها الأرض في حضنها، تنساب إلى مسامعه أصوات الطيور؛ يهيم وجدانه معها؛ تتخبط مشاعره في عبثية. ينزع كمامته الزرقاء يلقيها أرضا؛ يتنفس الصعداء، ومن بين الأشجار المتاخمة للبحيرة الكبيرة يخرج متوجها للبحيرة يمشي بتروٍ، ثم يجلس على كرسي خشبي مواجه للبحيرة ينظر لصفحتها الممتدة؛ فيقطع آلاف الأميال محلقا بجناحي خياله راكبا آلة الزمن؛ يخترق جدران الزمن؛ فيلتقى بأحباب قد رحلوا. يصافحهم بابتسامته يحاورهم في زمن

جميل مضى عليهم، وغربة مريرة يتجرعها بمفرده. على شاطئ البحيرة الرملي؛ يتابع "علام "الطيور التي تحلق فوق صفحة البحيرة في حين تسبح بعضها في انسيابية راقصات البيريزكا الروسية على خشبة المسرح ترقصن على الأنغام. يمسك العكاز براحتيه يسند ذقنه عليهما يتابع الطيور؛ يتمنى لو كانت له أجنحة مثلهن ليطير بها أين يشاء وقتما يشاء؛ ترتسم على قسماته علامات الشجن تعلو شفتيه ابتسامة باهتة محدثا نفسه:

- يا خريف العمر رويدك. ما عدنا نملك من العمر سوى القليل؛ دع الروح الظمأى ترتوي قبل الرحيل.

تأتيه ذكريات الماضي تتهادى؛ يهرع في أثرها؛ فهو الآن لا يملك سوى أن يستسلم لسحرها، يسير كالمجذوب وراء صوت الماضي أو لأي عطر قديم، تظمأ روحه ولا يرويها سوى من واحة الذكريات؛ يفتر ثغره إذ يتذكر أيام الشباب على كورنيش الإسكندرية، وحركة الناس وضحكاتهم الصافية التي ترن فتملأ الأفق. يتذكر حينما كان يتابع صيادي الجرافة المصطفين على الشاطئ في سراويلهم القصيرة تحيط خصورهم أحزمة جلدية قد ربطوها بشبكة في البحر يسحبونها من الماء. في حين يقف المتابعون على الشاطئ، والجميع في شغف طفولي ينتظرون خروج الشبكة الكبيرة، وما أن تخرج حتى تعلو صيحات الصبية المتابعين مهللين، والأسماك في الشبكة تتلجلج تنعكس عليها أشعة شمس الغروب فتلمع بلونها الفضي من بين خيوط الشبكة.

يسير "علام "بمحاذاة شاطئ بحيرة سانت كلير بأناةٍ وتروٍ؛ يحاور ذكرياته في الأيام التي انقضت في الماضي ولن تعود؛ يبكي بداخله طفل ضاعت منه الدروب، ويحمل ذكريات الماضي. يلملم النهار الخريفي عباءته يتعجل الغروب؛ تهب الرياح فجأة؛ يرفع قامته قليلا؛ يرى في الأفق السحب الداكنة؛ فيقرر العودة للبيت؛ يمر من بين الأشجار، ويركب سيارته منطلقا بمحاذاة النهر إلى مدينة "ديترويت "، والليل يركض ركض الخيول، وأنين الصمت يتوارى خلف أستاره. تبلل دموع الغيم الطرقات، وما أن وصل لبيته حتى وضع سيارته في المرآب، السماء تمطر؛ يفتح مظلته يتوجه للباب يفتحه، وفي الداخل يجلس على كرسيه الوثير مسترخيا تحت عباءة الليل الصامت، مكتفيا بضوء الأباچورة. يفتح درج مكتبه الخشبي، يخرج أجندة يعانق فيها الذكريات. فتثير عاصفة وجدانه وأشجانه، بين غيمات واقعه الداكنة؛ يشرب كأس الشوق فلا يطفئ جذوة الحنين. يسمع لحنه يشدوه نغما يراقصه طيف الذكريات؛ وكالعادة يقرأ "علام "مثل كل ليلة في أجندته ممتنا لما تحمله من الذكريات التي سجلها بقلمه في ليالي الغربة الباردة. تأتيه الذكريات تترا لتؤنس مساءه، وتقدم له ليلة جميلة تروي ظمأ الروح. في ليالي الغربة القاحلة ينوء القلب بثقل ما يحمل، وتستبد الكآبة بالنفس؛ يفتح درج مكتبه يخرج الأجندة، وما أن يفتحها حتى تتوالى الذكريات لتنعش الروح

وتحييها، مثل قطرات ندى تنعش الأزهار فيفوح عطرها، في هذه الأجندة تُبعث حياةٌ عاشها، تصر سنوات الغربة الجافية أن تمحوها.

يصل الحفيدان لزيارته والاطمئنان عليه كالعادة؛ يخرج علام من حجرة مكتبه ليجلس معهما؛ فلديه ما يخبرهما به. يجلس على كرسيه الوثير بينما يجلس أمامه على الأريكة حفيداه. يستند علام براحتيه على عكازه يخبرهما برغبته الملحة التي طالما يحلم بتحقيقها، وتحدث إليهما كثيرا عنها:

- كيف ستعيش في مصر وحدك يا جدي؟
- ما رأيك إن أقمت في دار للمسنين فتأنس بأصدقاء جدد؟
- ونعدك يا جدي لن ننقطع عن زيارتك، وتبقى معنا في أمريكا.

يبدو على علام التأثر الشديد تفر دمعة من عينيه يمسحها بكفه في حين ينظر الحفيدان لبعضهما:

- لا نقصد يا جدي سوى راحتك؛ فذلك خير من إقامتك في مصر وحدك.
- في مصر لن أكون وحدي؛ فالناس هناك كلهم أهلي.
- منذ جئتكم في زيارة، ومات أبوكما في تفجيرات سبتمبر قررت ألا أعود للإسكندرية حتى أطمئن عليكما، والآن قد كبرتما، وصار لكل منكما بيته وعمله وحياته الخاصة.
- لكننا لا نستطيع أن نتركك يا جدي.
- تلك رغبتي؛ فأمنيتي الأخيرة أن أعود للإسكندرية، وأدفن فيها مع رفاق عمري
- وهل تضمن أن أحدًا منهم على قيد الحياة حتى الآن؟
- تكفيني العودة لبيتي في بحري، وقضاء أيامي الأخيرة مع جيراني وذكرياتي.
- ومن سيعرفك هناك الآن؟ وكيف ستعيش؟
- أحول أموالي على مصر، وأعيد فتح مكتبتي؛ أبتاع وأبيع الكتب التي آنستني طوال عمري.
- من الممكن أن يكون البيت قد تهدم. فأين تقيم حينئذ؟
- لقد عملت حسابي؛ سأنزل في أوتيل، وأتعاقد مع محامي يتابع أعمالي وسأتواصل معكم بصفة مستمرة عبر الإنترنت.
- هل أخبرت عمتي بذلك؟
- عمتك مع أحفادها، ومشغولة بمرض زوجها.
- ألم تعارض رحيلك للإسكندرية؟
- تعارضه بشدة؛ وبكت بكاء حارا، ولكنني أقنعتها حتى وافقت أخيرا.
- وكيف نطمئن عليك يا جدي.

يبتسم علام ابتسامة فاترة مادا يده لهما بهاتفه:

- سنتواصل عبر الانترنت كما نفعل هنا، وعندما أستقر على محام سأجعله يتواصل معكم؛ لا تقلقوا عليَّ.
- كما تحب يا جدي لن نعترض على رغبتك. لكن احرص على نفسك جيدًا.
- في مصر أنا بين أهلي وناسي. احرصا أنتما على أنفسكما، ولا تقطعا صلتكما بعمتكما وأولادها وأحفادها.
- نعدك بذلك يا جدي.

يعود لحجرة المكتب، و كعادته يمسك علام بالأچندة القديمة التي اعتاد قراءتها كلما واتته الظروف فلها عنده أهمية خاصة؛ يحرص عليها، ويحتفظ بها في درج مكتبه؛ يجد فيها بصيص أمل ينير عتمة الوجدان، ويبدد ضباب الأحزان، دارت به رحى الأيام؛ يود أن يودع أوجاعه، ويضئ ظلمة العمر وليالي الغربة. كثيرا ما يراه أحفاده يختلي بها يقرأ فيها؛ يسألانه عنها فيجيبهم:

- مع مرور سنين الغربة المتثاقلة يبدو الأمل مرادفا للمستحيل حينها ندرك الحقيقة التي يتحتم علينا أن نحياها رغم ما نعانيه من ثقل التظاهر بالرضا. نعيش بالأمل يستنزفنا الألم؛ فالغربة ليست في فقد الوطن فقط. الغربة في فقد الأحباب والرفاق؛ فيتحتم علينا أن نؤدي دورنا الأخير على مسرح الواقع برفقة الألم - ألم الفراق والغربة -.

وكلما سألوه عن هذا الفصل الأخير الذي يحرص على بقاء صفحاته فارغة؛ تعلو وجهه ابتسامة أمل فيرد عليهم: إن امتد بي العمر سأكتب الفصل الأخير يوم أعود إلى الإسكندرية.

يضحكون قائلين: ومن سيتركك تعود للإسكندرية يا جدي؟ نحن لا نستغنى عنك أبدا. ثم من لك هناك الآن؟ ...

وينقضي المساء في حديث بينهم؛ يتفقون في النهاية على إتمام الإجراءات لعودة الجد النهائية للوطن.

*****

ينبعث صوت السائق فجأة يوقظه من استغراقه في الذكريات:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.
- هل توجد مشكلة يا أسطى؟
- طريق الكورنيش مزدحم جدا يا باشا.
- هل هناك ما يعطل الطريق؟!!
- يضعون البلوكات لصد الأمواج عند المنشية؛ سأدخل بك من محطة الرمل.

وتقف السيارة في إشارة تقاطع شارع صفية زغلول مع شارع السلطان حسين يلقي علام بناظريه جهة اليسار يبحث عن شيء ما قائلا لنفسه:

- آه من الحنين عندما يعتصر القلب. عدت من الغربة لأجد الذكريات تبللها دموع الفقد، وجدت الوطن ولم أجِد الرفاق.

تجتاحه رياح الشجون؛ تزج نافذة الذكريات تفتحها فيزيح الستار ليطل على ذكريات استحالت لاصفرار في كتاب الحياة. يقلب أوراقه في صمت؛ يشم عطر الماضي بين ثنايا صفحاته ...

*****

الإسكندرية صيف 1956:

إلى جوار مقهى السلطان حسين ناصية تقاطع شارع صفية زغلول مع شارع السلطان حسين. منطقة محطة الرمل ذلك الحي العريق، وبناياته العتيقة التي تحمل الكثير من توقيعات مشاهير العمارة الإيطالية والفرنسية، وعبق الإسكندرية الكوزموبوليتانية.

في محل المكوجي. يقف منهمكا في عمله "فكري صابر" شاب في منتصف العشرينيات. يميل جسده للنحافة طويل القامة حليق شعر الشارب والعارضين يلمع شعره الأسود الداكن. يمسك في يده مكواة يرفعها قريبا من خده؛ ليستشعر حرارتها. يعود لينهمك في كي الملابس، وكلما انتهى من قطعة يعلقها على الشماعة. يمد يده ليتناول مثيلتها يفردها على الطاولة أمامه استعدادا لكيها بعد أن تسخن المكواة، وبينما كان "فكري "منهمكا في عمله بكل جدية وإتقان. تقبل عليه فتاة لم تدق أبواب العشرين؛ تبدو عليها نضرة الشباب ذات وجه مليح مشرب بالحمرة على شفتيها الورد مروي بأنداء الصباح. تمسك في يدها قميصا، وبلكنة لا تخفي أصلها الريفي:

- نهاركم سعيد. إنت فكري المكوجي؟
- اتفضلي. تحت أمرك يا ست البنات.

تناوله قميصا؛ يأخذه منها يفرده على الطاولة بخفة؛ يتفحصه.

- المدام تتعجل هذا القميص، وتخبرك أن تنتبه عند وضع النشا. تقول لك المرة السابقة النشا في ياقة القميص كان كثيراً .
- أي مدام تقصدين؟
- مدام مارسيل.
- هل تعملين عند الخواجة باروخ؟
- منذ الأمس فقط.

ترتسم الابتسامة على وجه فكري ينظر إلى عينيها:

- وما اسمك؟

بخجل تجيب:

- نعمة.
- تفضلي بالجلوس يا نعمة؛ لتأخذيه معك بالمرة.
- المدام تزعل إن تأخرت عليها.
- حالاً. لا يستغرق سوى دقائق. لن أعطلك.

يتابع الخواجة "أليكو "صاحب الدكان كنكة القهوة التي يعدها على نار السبرتاية الهادئة. ينظر إلى عقارب الساعة والتي تتحرك ببطء شديد. تتوه عيناه، تغفو سيجارته بين شفتيه، يسير في مروج الذكريات؛ يبدو على وجهه الشرود.

*****

"نيقولاس بابا كوستا "يوناني قصير القامة أشيب شعر الرأس في نهايات العقد السادس له بشرة بيضاء ذو شارب فضي كث، وشهرته "أليكو ". استوطن الإسكندرية في مقتبل شبابه، كان شريكا لرجلين من جنسيته في بار "كاب دور" ولكنه انفصل عنهما، وفتح دكانا لتنظيف وكي الملابس. أحب جارته الجميلة في حي العطارين "إيرين باسيلي "، وتكلل حبهما بالزواج. عاشا معا حياة سعيدة، ولم ينجبا سوى ولد واحد يدعى "چورچ ". بعد الغزو النازي لليونان مطلع الأربعينيات. يفر ملك اليونان وحكومته لمصر؛ فتتكون حكومة اليونان في المنفي؛ يسافر "چورچ "لليونان لينضم للجيش الديمقراطي اليوناني الجناح العسكري للحزب الشيوعي اليوناني للمقاومة ضد الغزو النازي، ويلقى مصرعه على يد القوات النازية؛ ويدفن في اليونان. لم تتحمل "إيرين" فقدان وحيدها، تجتمع عليها العلة والأحزان. ترعاها وتخفف عنها جارتها الست "سعاد" زوجة "محمود أفندي حمزة "رئيس مستخدمي هندسة السكة الحديد في محطة مصر بالإسكندرية. تصحبها دوما إلى مستشفي "كوتسيكا" اليوناني في منطقة" الحضرة ". يقرر "أليكو" بعد نهاية الحرب الأهلية في اليونان نهاية الأربعينيات أن ينسيها الحزن وآلام المرض؛ فيصطحبها لزيارة اليونان؛ فما زادها ذلك إلا حزنا وكمدا، تتجمع عليها آلام المرض والأحزان فتلحق بوحيدها، وتحت الصليب الرخامي الكبير وقد تجسد عليه تمثال المسيح مصلوبا يضع أليكو إكليل الزهور. تقطر شفتاه دموعا انسالت من عينيه المنتفختين يمزقه الحزن لفراق حبيبة عمره. عزاؤه الوحيد أنه تركها برفقة چورچ. يعود "أليكو "إلى الإسكندرية حزينا وحيدا لا تؤنسه سوى ذكرياته الجميلة مع زوجته إيرين وابنه چورچ. يلملم صور الماضي يصنع منها شريط ذكريات لحياته؛ فيؤنسه في لياليه الموحشة، ومنذ ذلك الحين يعيش في غربة وحيدا؛ لا ينزع رابطة العنق السوداء.

يداوم على الذهاب للكنيسة المرقسية في محطة الرمل أيام الآحاد؛ ليشعل شمعتين إحداهما لـ"إيرين "، والأخرى لـ" چورچ ". يحاول دوما أن يلهي نفسه بالعمل طيلة النهار، وإن استبدت به الذكريات أحيانا في بعض الليالي يذهب لبار "كاب دور" في أحد الأزقة الضيقة المتفرعة من شارع سعد زغلول في المنشية. صار يميل للشوارع الجانبية والحارات والأزقة حيث تختفي حقيقة البشر؛ ففيها يستطيع أن يخفي أحزانه. يتجنب الشوارع الرئيسة بأضوائها المبهرة التي تتطلب ارتداءه قناع الابتسام الذي يرتسم عليه عكس حقيقة مشاعره الحزينة. لا سلوى له سوى الانشغال بدكانه والاستماع إلى الراديو. يحب الخواجة "أليكو "فكري كثيرا ويعتبره ابنا له؛ يبثه حبا فينال منه اهتماما بالعمل واحتراما لشخصه.

*****

يصب الخواجة فنجان القهوة؛ يرتشف رشفة. يشعل سيجارة "لكى استرايك ". ينظر من تحت نظارته الطبية يزمُّ شفتيه، ثم يقطع حديث فكري:

- ساس باراكا لومي فكري (من فضلك فكري.)
- حاضر يا خواجة.

وبينما يتناول الخواجة قهوته. يدير مفتاح الراديو؛ يتابع أهم الأخبار المحلية والعالمية، وما أن تنتهي إذاعة الأخبار حتى يعبث بمفتاح الراديو بحثا عن الأغنيات؛ فإذا بصوت "كارم محمود "يصدح بأغنية "على شط بحر الهوى" يسند "أليكو "رأسه على راحته يبدو عليه التأثر بكلمات الأغنية؛ في حين يدندن فكري مع الأغنية وهو يعمل، ويسترق النظرات إلى"نعمة "؛ فتزداد الحمرة على وجنتي "نعمة "فتخفض طرفها خجلا؛ تشد فستانها وهي جالسة على الكرسي؛ تغطي ركبتيها المرمريتين. تتظاهر بأنها تستعدل منديل رأسها أبو أوية؛ لتواري خجلها، فينبض قلب فكري لها. على ما يبدو أنه قد أصابته حُمى حب النظرة الأولى، تحتل "نعمة "قلبه وتتربع فيه ملكة متوجة، ترتسم ابتسامة يغلفها الخجل على وجهها، في تلميح غير صريح بإعجابها بـ"فكري "، فعلى ما يبدو قد أسر فكري قلبها هو أيضا من النظرة الأولى.

يبتسم فكري لها ابتسامة تفضح مكنون قلبه تجاهها:

- تفضلي يا ست البنات. انتهيت من القميص.
- شكراً يا سي فكري.
- نورتي يا ست البنات.

الخواجة أليكو مقاطعا لحديثهما برفق:

- انتبه لعملك فكري.. كله كلام. كلام.

- حاضر يا خواجة.

تسرع "نعمة" مضطربة الخطوات، تدير وجهها للدكان، فإذا بفكري يمط رقبته؛ يتابعها، فتبتسم خجلاً، وتهرول مسرعة تكاد تتكفئ على وجهها من شدة الخجل، تملأ البسمة وجهها تقفز السعادة من قلبها، أما فكري فقد ترك المكواة على النار حتى توهجت؛ يتابع نعمة في شغف، يستفيق على صوت الخواجة منادياً:

- يا فكري. يا فكري !!
- أتناديني يا خواجة؟
- المكواة.
- لو سمحت يا خواجة ارفع صوت الراديو.
- أنت تحب تسمع "كارم محمود" فكري؟
- الأغنية حلوة يا خواجة.

يبتسم الخواجة ينظر في عيني فكري من تحت النظارة يسأله في مكر:

- الأغنية ولا البنت أحلى فكري؟

بابتسامة وخجل يعود فكري لينهمك في كي الملابس. يضحك الخواجة، ويدندن مع الأغنية بلكنته الجريجي؛ فيضحك فكري، وينهمك في عمله.

يقبل عليهما بابتسامته المعتادة "لمعي صنارة "هكذا ينادونه لشدة ولعه بالصيد؛ له أحلام مثل كل فتى في العشرين. لا يستقر على حال؛ ربما أصاب في إحداها شيئا من مبتغاه. لكن واقعه كمن يغرف بإبرة من البحر الثائر قطرة. تتضارب أحلامه مع واقعه؛ لم يستطع البقاء في عمل بسبب هوايته للصيد. فكلما وجد الأجواء مواتية يزوغ من عمله. يحمل الغلق والصنارة. يجلس أمام البحر بالساعات، وقد يبيت على الشاطئ. تنقل بين أعمال كثيرة. عمل في صباه في مصنع الخواجة أنطونيو الإيطالي في "اللبان" يعبئ المكرونة في أجولة الخيش، ولم تطل به الحال فالتحق بعمل آخر في معامل تجهيز البسطرمة والسجق البقالي في منطقة "كوم الناضورة "عند الخواجة "أرتيني" الأرمني فلم يطق البقاء فيها أكثر من عامين، وفي شارع الجمرك القديم عمل في فابريقة "نوفل الحندويل "للحلويات والبسكويت، وكالعادة لم يطل فيها مقامه، وأخيرا وجد عملا عند المعلم "حودة كرامة "صاحب فرقة موسيقى" حسب الله "في بياصة كرموز، المعلم حودة كرامة قصير القامة ممتلئ الجسم منتفخ الجفنين يرتدي على عينيه الجاحظتين نظارة طبية سميكة العدسات (قعر كوباية) طويل السوالف حليق الشارب يبرز كرشه أمامه فلا يستقر طرف قميصه داخل سرواله. ما تراه إلا والشيشة أمامه يدخنها بشراهة. اكتسب المعلم حودة اسم شهرته - كرامة - بسبب تلك العبارة التي يرددها دوما في ختام كل حديث له: (ولا مؤاخذة أصل اللي عنده كرامة أحسن من اللي عنده فلوس) وإن تعرض

لأي محاولة تغفيل من أحدهم مستغلا ضعف بصره كان رده السريع بالشخرة الإسكندراني الطويلة الرنانة يعلن بها أنه يراه وينتبه له، وهى أشد أنواع الاحتجاج لديه، لذلك تنطلق منه الشخرة قوية ومدوية، وقد كانت لصبيانه وأولهم لمعي تصرفات يتعمدون بها تغفيله ليطلق شخرته الطويلة فينفجروا ضحكا فيتبع ضحكاتهم بضحكة تظهر أسنانة التي علاها الاصفرار، وعن طريق العمل مع حودة كرامة عرف لمعي كل الأرتيست، وهوى كار العوالم؛ يقضي مع "الأرتست "معظم وقته. يصحبهم في الأفراح؛ مرات تراه مع فرقة الأسطى فوزية وأحيان أخرى يصحب فرقة الأسطى ريا أو مع فرقة حمامة العطار أو فرقة خليل الفكهاني وفرقة سعيد الحضراوي؛ يجالسهم على مقهى العوالم مرتديا قميصه المفتوح كاشفا عن معظم صدره، وقد مشط شعره بتسريحة" بوجديد" تتدلى خصلة من شعر رأسه الكستنائي على جبينه الخمري. يضع رجلا على رجل. حريص على تلميع حذائه "القيرنيه "الذي يحرص على ارتدائه كلما صحب الأرتست في حفلاتهم. تستطيع أن تراه في أكثر من مكان في ذات اليوم. "صنارة "شاب عشريني بسيط الهيئة يميل جسمه للنحافة. ترتسم على وجهه ابتسامة لا تفارقه؛ تجعل كل من يراه يعتقد أنه في غاية السعادة:

- صباح الخير. كالي مِيرا يا خواجة .

يبدو على الخواجة "أليكو "التبرم؛ فيرد عليه وقد أدار وجهه متظاهرا بالانشغال في مفتاح الراديو بحثا عن نشرة الأخبار:

- كيريتي (أهلاً).

يرحب فكري بصديقه لمعي:

- صباح النور يا لمعي. تفضل.

الخواجة بنبرة حادة:

- ساس باراكا لومي فكري (من فضلك فكري.)
- حاضر يا خواجة. الدنيا مش هطير.

يبتسم "لمعي "رغم استقبال الخواجة الفاتر:

- الخواجة "أليكو" لا يطيق رؤيتي كلما جئت لك.
- لا عليك يا لمعي. اجلس. أعملك شاي؟
- لا. لقد أحضرت للخواجة "باروخ "خادمة. "صباح "أنت تعرفها.
- ألا زلت تسهر عند فوزية العالمة؟
- أوقات سعيدة نسرقها من أيامنا الصعبة يا فكري. ونضمن عشوة حلوة.
- الله يهديك يا صاحبي، وتثبت في شغلانة، وتشوف بنت الحلال اللي تلمك.

يقاطع الخواجة حديثهما هازئا:

- مش ممكن أبدا لمعي دي يتجوز. لمعي دي واخد خلبوص.

يضحك لمعي غير مكترث كعادته بانتقاد الخواجة له:

- ستصل "صباح "الآن، وأوصلها للخواجة باروخ؛ فأحصل على نصف ريال مكافأتي التي وعدني بها.
- "صباح "لن تعمل عند الخواجة باروخ.
- لماذا؟ (يقولها لمعي باستغراب)
- الخواجة أحضر خادمة جديدة.

لمعي مندهشا:

- منذ متى؟
- منذ الأمس فقط.
- وكيف عرفت؟
- جاءت هنا لتكوي قميص الخواجة و اسمها "نعمة "وهي فعلا نعمة.
- وعرفت اسمها بهذه السرعة. حلوة يا فكري؟ (قالها لمعي مبتسما وهو يغمز بإحدى عينيه لـفكري.)

يتنهد فكري قائلا بحماس:

- قمر 14.
- نعرفها بصباح تأخذها معها عند فوزية؛ شغل العوالم بيكسب ولا الحاجة للخدمة في البيوت.

ترتسم على وجه فكري علامات غضب وتتغير نبرة صوته:

- اسمع يا لمعي. ما بيننا كوم ونعمة كوم آخر.

ينفث الخواجة دخان سيجارته متبرما:

- فكري. انتبه لعملك من فضلك.
- اطمئن يا خواجة.
- كله اطمئن. اطمئن. انتبه لعملك ولا تتكلم.

يبتسم "صنارة" ابتسامة عريضة يعدل من هندامه:

- سأنصرف؛ الخواجة لا يطيقني .
- إلى أين؟

- سآخذ صباح؛ نضرب بولطه لحد الأنفوشي. وفي الليل نسهر عند فوزية. أتحب أن تسهر معي؟
- لا. سأسهر مع "علام "على قهوة أنح.

لمعي تملأ وجهه الابتسامة:

- كما تحب. السلام أمانة. سلم لي على علام. ويمكن أعدي عليكم.

وبنبرة عالية باسمة يضم لمعي أصابع كفه يرفعها أمام جبهته:

- سعيدة يا خواجة.
- كابيو ساس. (مع السلامة)

وما أن ينصرف لمعي:

- ما بك يا خواجة؟ إذا جاءني لمعي لا تطيقه وإن حضر علام ترحب به وتقدم له القهوة، وأنت تعرف أن الاثنين أصحاب عمري.
- "علام الرشيدي" دي تمام. لكن "لمعي "أنا أتعجب كيف تكونون أصحاباً؟
- نحن من حارة واحدة. جيران وأصحاب منذ الطفولة.
- اسمع فكري. أنت تعمل عندي منذ كنت صبيا، وتربيت في الدكان. أنت الآن شاب، وتساعد أمك وترعاها؛ فأنت تستحق كل خير. انتبه لعملك ومستقبلك.

وإذ فجأة يلمح فكري نعمة تتهادى كمهرة تعبر الطريق؛ فيدق قلبه دقاتٍ يكاد يقفز من بين ضلوعه. عجباً ! لم يعتاد تلك المشاعر من قبل.

- بعد إذنك يا خواجة. خمس دقائق.
- لا تتأخر فكري. (يقولها الخواجة ضاحكاً): يمط شفتيه قائلا (القلب له أحكام).
- تسلم لي يا خواجة.

ينطلق فكري مسرعاً؛ ليلحق نعمة، وما أن اقترب منها:

- يا نعمة.
- سي فكري. أتريد شيئاً؟
- أود أن أقول لك كلمتين، وأنا أمشي لجوارك.
- لا يصح يا سي فكري.
- أنا طالب الحلال يا ست البنات.

يعتريها الخجل، ولكنها تتماسك محاولةً إخفاء ابتسامتها:

- البيوت يدخلونها من الأبواب، وأنت ابن أصول، وتفهم في الأصول.
- معك حق يا بنت الأصول. سأحضر أمي ونزوركم.

هزت "نعمة "رأسها بالموافقة في خجل؛ فيبادرها فكري فرحا:

- كلمي أهلك؛ ونحدد ميعاداً نزوركم أنا وأمي.

تبدو في وجه "نعمة " الفرحة التي غابت عنها لسنوات طويلة:

- تنورونا يا سي فكري.
- مع السلامة يا ست البنات.
- انتبه لنفسك.
- حاضر يا ست البنات.

تنطلق في طريقها، يرفرف قلبها من الفرحة؛ فيزيد وجهها بهاء وألقا. يعود فكري للدكان، يكاد يطير فرحاً. تضئ وجهه البسمة، يتمتم بأغنية كارم محمود "على شط بحر الهوى.. رسيت مراكبنا "

- أراك سعيداً فكري. هل حصل المراد؟
- اتفقت معاها أزورهم أنا وأمي.
- سينخاريتيريا فكري.
- الله يبارك فيك يا خواجة.

يقبل فكري على العمل بهمة ونشاط، يتمتم بكلمات الأغنية والخواجة يتابعه، وقد ملأ وجهه الابتسامة.

- خد فكري اشتري لنا طعاما؛ اقترب موعد الغداء.
- ماذا سنأكل اليوم يا خواجة؟
- أنشوجة جريجي وزتون كلماتا من عند ميخاليس.
- حاضر يا خواجة.
- لا تنس فكري. العيش يكون سخن.
- واتنين اسباتس يكونوا مثلجين.
- كالا (تمام) فكري. لا تتأخر.
- حمامة يا خواجة.

على الكورنيش..

عند الغروب وقد دنت شمس الأصيل من وجه البحر فيقبل وجنتيها لتزداد احمرارا، يمشي لمعي مع "صباح" فتاة في مطلع الشباب ذات وجه صبوح يشع جمالا، وغمازتين في الوجنتين مع كل ابتسامة. ينسدل شعرها الكستنائي من تحت المنديل أبو أوية. لها قوام ملفوف سمهرى وصدر ناهد. خصرها الخيزران يميل إذا هبت على قدها الريح، تتهادى في الملاءة اللف في حسن ودلال. تمضي تبتسم رغم

الجراح والآلام؛ وكأنها لم تتجرع مرارة الدمع يوما، قوية ترتدي الأحزان كما ترتدي ثيابها. تتأبط ذراع لمعي:

- ليس لي نصيب في العمل عند الخواجة، وسأعود لخالتي فوزية.
- وما الجديد في ذلك؟
- كنت أود أن أجد عملا؛ ربما وجدت ابن الحلال، وأصبحت ست بيت، لأعطيه كل قلبي، وأربي أولادي أحسن تربية.
- لا عليك. ربما في فرصة أخرى.

يلفت لمعي شخصا يقف على إحدى البلوكات، وقد مد الصنارة في انتظار صيده:

- انظري يا صباح الصنارة غمزت.

لمعي مولع بالصيد لا يفارق البحر، قد يجلس على الشاطئ قبل طلوع الشمس، ولا يعود إلا بعد غروبها. فإذا بالصياد يرفع الصنارة؛ فقد نجح في صيد سمكة.

- انظري لقد صاد سمكة صغيرة. (يقولها لمعي ضاحكا)

تدير صباح وجهها؛ تنظر للسمكة الصغيرة العالقة في الصنارة، وقد بدا عليها الحزن، والكدر:

- مسكينة. أخذها الصياد من بين أهلها.

يضحك لمعي من كلام صباح؛ يلتفت إليها:

- ما هذا الكلام يا بنت العبيطة؟
- أتعرف يا لمعي أنا مثل كل البنات. كان ليَّ أهل لكن كل ما أتذكره عنهم رجلاً بعمامة خضراء، وسيدة في جلباب أسود، ومولد وزحمة وناس كتير.

*****

قبل سنوات وفي خضم مولد السيدة نفيسة..

امرأة في جلباب أسود فوق رأسها غلق. يتعلق في إحدى فتحات أنفها حلق من فضة، وفي ذقنها وشم أخضر تنادي في الناس:

- أبين زين أبين.

يبدو على وجهها التبرم؛ تحط الغلق من على رأسها، وتفترش الأرض. تتحدث مع رجل ضخم الجسد غليظ الملامح يرتدي جلبابا رثا. يتحدثان في همس حتى لا يسمع حديثهما أحد.

- الناس لا ترغب في ضرب الودع ومعرفة البخت.
- وأنا لم أسرق حتى الآن سوى محفظة واحدة. لا تحوي سوى ثلاثة شلن.

- والحل؟
- هل ترين البنت الصغيرة هناك.
- ما بها؟
- نخطفها، ونبيعها لمن يدفع.
- كيف؟
- في ناس لا تنجب، وتتمنى ظفر طفل تربيه، وفي غيرهم يريدون خادمة لا تكلفهم أجرة، ومن يدفع لنا أكثر حلال عليه البنت.

تمر السنوات وفي إحدى الشقق..

فتاة لم تتعد السادسة عشرة في ثوب رث. يتصبب عرق جبينها تمسحه بظهر كفها. تمسح أرضية الشقة. بينما تتمدد على الأريكة سيدة أربعينية تلون أظافرها، وقد ثبتت المروحة الكهربائية عليها، وإلى جوارها كوب ليمونادة مثلجة تستمع لأغاني الراديو. وما أن انتهت الأغنية حتى بدأت نشرة الأخبار ليعلن المذيع:

إليكم بيان مجلس قيادة الثورة الصادر بتاريخ اليوم ٨ من شوال / ١٩ من يونيه ١٩٥٣ م

نعلن اليوم باسم الشعب:

أولا: إلغاء النظام الملكي، وحكم أسرة محمد علي. مع إلغاء الألقاب من أفراد هذه الأسرة.

ثانيا: إعلان الجمهورية. يتولى الرئيس اللواء أركان الحرب محمد نجيب قائد الثورة رئاسة الجمهورية مع احتفاظه بسلطاته الحالية في ظل الدستور الحالي.

ثالثا: يستمر هذا النظام طول فترة الانتقال، ويكون للشعب الكلمة الأخيرة في تحديد نوع الجمهورية، واختيار شخص الرئيس عند إقرار الدستور الجديد.

فيجب علينا أن نثق في الله، وفي أنفسنا، وأن نحيا بالعزة التي اختص بها الله عباده المؤمنين. والله ولي التوفيق.

في مساء ذات اليوم تجلس الفتاة على أرضية المطبخ أمامها طبق صغير للغاية، وفي يدها رغيف خبز تأكل به. بجوارها وسادة. فإذا بصوت سيدتها:

- بنت يا صباح.

تنتفض واقفة تاركة طعامها:

- حاضر يا مدام.

تجلس المدام على أريكتها، وفي يدها سكين؛ تقشر به تفاحة.

- ناولي سيدك "فتحي "الباشكير في الحمام.

تسرع صباح لتجلب الباشكير. تتجه نحو الحمام تطرق الباب، وتدير وجهها عن الباب، وبينما تمد يدها تناوله الباشكير إذ فجأة تخطفها يد البيه "فتحي "الذي تربت في بيته، وصارت يافعة نضرة؛ يحاول افتراسها في الحمام فتنقذها مداهمة الزوجة المفاجئة له:

- نهارك أسود يا فتحي. أما أنت خذي ملابسك، وأخرجي من البيت حالاً (صارخة في غضب). بره لا أريد أن أرى وجهك هنا مرة أخرى.

تقف صباح منهارة من البكاء؛ فهي لا تعرف في الدنيا سوى المدام والبيه فتحي

- والنبي مظلومة يا مدام.

يخرج البيه فتحي من الحمام:

- يا "كوثر"لم يحدث شيئا. كنت سأقع فأمسكت بيدها وجذبتها معي. لا تفهمي الموضوع خطأ.
- لن تبيت في بيتي الليلة. قلت بره.
- النهار له عينان؛ الوقت متأخر أين تذهب البنت الآن؟
- قلت لن تبيت في البيت، وإلا تركته أنا. قلت بره.

تحمل "صباح "صُرة ملابسها تحتضنها باكية، يخرج البيه فتحي ريالا يناوله لصباح. تجذبه كوثر بعنف من يده، وتفتح باب الشقة؛ تدفع الفتاة خارجا، وتغلق الباب بشدة.

تجلس صباح على درج السلم تبكي. فينزلق لمسامعها صراخ مدام كوثر مع البيه فتحي فينتابها الخوف الشديد، وتنزل السلم مسرعة يرتعد جسدها. في الشارع تبطئ الخطوات تتلفت حولها؛ تلفها الحيرة. أين تذهب الآن؟ تسير من شارع إلى شارع حتى وصلت إلى محطة القطار، تجلس على الكرسي الخشبي في المحطة الكبيرة، ودموع الظلم والقهر تملأ روحها؛ لا تعرف ماذا تفعل؛ فقد أعيتها قلة الحيلة.

يقف رجل يحمل حقيبة لآلة الكمان يتحدث إلى سيدة أربعينية تقف بجواره:

- أترين هذه البنت يا أسطى؟
- منظرها يقطع القلب؛ سأرى حكايتها.
- الوقت تأخر، ولابد أن نركب قطار الإسكندرية.
- اصبر قليلاً. اسبقني مع الفرقة سألحق بكم.
- أمرك يا أسطى.

الأسطى "فوزية حواجيبو "عالمة من عوالم "بياصة كرموز "دائما ما تدس يدها في صدرها لتخرج مرآة صغيرة تضعها في كفها وبكفها الأخرى ملقاط تنظر في المرآة؛ تنمص بالملقاط حواجبها الدقيقة؛ تولي حواجبها اهتماما بالغا. امرأة بيضاء غضة ممتلئة بلا إسراف يغطي وجهها مساحيق الزينة. تتحلى أذرعها البيضاء بأسورة ذهبية. ترتدي ثوبا من حرير مزركش بالورد في تناسق لوني رقيق بفتحة مربعة فوق الصدر يبرز مفاتنها التي لا تقاومها العين فتعانقها في سكرة جمالها. تتهادى في دلال عن غير عمد إن حدثتك ترويك وكأنك تشرب كوب خروب مثلج تحت ظل شجرة وارفة في نهار أغسطس الملتهب. ورثت الكار عن أمها "سيدة البيضا" كانت فوزية فيما مضى أرتيست تغني في حفلات الأعراس التي تقيمها أمها سيدة البيضا، والآن تدير فرقة من الأرتيست لإحياء الأفراح والليالي الملاح.

تقبل فوزية حواجيبو على صباح تجلس بجوارها:

- مساء الخير يا حبيبتي.

بخوف واضطراب تتلفت "صباح "حولها؛ تتلجلج الكلمات في فمها.

- مساء النور.
- أتنتظرين أحداً؟
- لا.
- الوقت متأخر؛ وقد تتعرضين لمضايقات، وأنت وحيدة.
- ومن يضايقني؟
- كلاب السكك. أليس لك بيت؟

باكية تجيب:

- لا.

يبدو على الأسطى فوزية التأثر تجلس بجوارها تربت على كتفها بحنو:

- ولا يهمك يا حبيبتي. محسوبتك الأسطى "فوزية حواجيبو "عالمة من إسكندرية. ستأتين معي.
- أعمل عندك؟
- تعيشي معايا يا حبيبتي. الدنيا لسه بخير.
- إلهي يستر عرضك يا ست.

ترتسم الابتسامة على وجه فوزية: خالتك فوزية.

تأخذها في حضنها. تتأبط ذراعها يتوجهان للقطار.

- ما اسمك؟

- صباح.
- ما حكايتك يا صباح؟

ينطلق القطار في طريقه بينما تسمع فوزية حواجيبو حكاية صباح. متأثرة بمأساة صباح تقول:

- لا تشغلي بالك يا صباح. على رأي المثل: "ألا ما كادتنا الكاملة المكملة هتكدنا الكارتة المقملة "ستعيشين معي حتى يأتي لك ابن الحلال.

بياصة كرموز في بيت فوزية..

في صالة الشقة التي تنتهي بشرفة كبيرة تجلس صباح في التراسينة؛ تتابع بروڤات الأرتيست في حين يتابعها من أمام دكانه في الشارع "خميس الدلوعة "كهربائي الشوادر الذي تزوج من سنوات كثيرة، ولم يرزق بالذرية؛ ويفكر جديا في الزواج مرة أخرى لينجب الذرية التي يحلم بها، تراه دائما يجلس أمام دكانه يتفرس النساء لا ينزع عينه عن إحداهن حتى يلصقها في أرداف أخرى. يرى نفسه دنچوان عصره لا يراعي سنه في كلامه أو ملابسه، يستخف به الجميع بينما هو لا يشعر بذلك، ومنذ وقعت عيناه على صباح لا تحيد عنها، وصباح لا تلتفت إليه؛ تراه رجلا تافها. في بيت الأسطى فوزية حواجيبو لا ينقطع الغناء والرقص؛ تتابع صباح البروڤات؛ تبدو على ملامحها البهجة؛ تردد وراء الأرتيست، وأحياناً تشاركهم في الغناء؛ فلها صوت جميل؛ فلا تنفك الأسطى حواجيبو أن تعرض عليها العمل مطربة في الفرقة. تتعالى الضحكات؛ بيت "فوزية" لا يخلو من الزائرين. يدخل لمعي كالعادة تملأ الابتسامة وجهه؛ يرفع يده تحية للجميع، ويجلس بجوار الأسطى فوزية:

- مساء الخير يا أسطى.
- أين كنت كل هذه المدة يا صنارة؟
- في الدنيا الواسعة. من التي تجلس في التراسينة يا أسطى؟
- إنها صباح. يا صباح تعالي.
- نعم يا خالتي.
- لمعي صنارة. واحد مننا يا صباح.
- (ضاحكاً) مساء الورد يا صبوحة.

صباح مبتسمة:

- يا أهلا يا سي صنارة.

يبدو على صنارة الإعجاب بصباح؛ فلا يحيد بناظريه عنها:

- أرتيست عندك يا أسطى؟

- لأ. صباح زي بنتي.
- تعيشي يا خالتي.

تلتقط صباح نظرات لمعي يعتريها بعض الارتباك؛ تسرع دقات قلبها تحاول جاهدة إخفاء ذلك فتسرع قائلة:

- تشرب شاي؟

يومئ لمعي برأسه موافقا في حين تدس فوزية يدها في صدرها تخرج المرآة والملقاط تنمص حواجبها بينما يتابع لمعي صباح تملأ وجهه الابتسامة المعتادة فضلا عن ضربات قلب لم يعهدها من قبل فترميه صباح بنظرة يزداد معها خفقان قلبه يفتر ثغره بالابتسامة فتزيد وجنات صباح احمرارا. تناوله صباح كوب الشاي يمد يده إليه بينما تتعلق عيناه بصباح التي يعتريها الخجل والارتباك الشديدين حتى كادت أن تسقط من يدها الصينية بما عليها:

- اتفضل يا سي لمعي.
- من يد ما نعدمها يا ست البنات.

لم تتصافح الأيادي ولكن تصافحت العيون وتعانقت القلوب. يتعلق قلب صباح بلمعي يشعر لمعي بانجذاب لصباح، وكلما جاء في زياراته المعتادة لبيت فوزية وتقع عيناه على صباح تنتابه مشاعر لم يعهدها من قبل؛ فقد خطفت صباح قلبه منذ النظرة الأولى. لكن اليد قصيرة والعين بصيرة.

*****

وعلى الكورنيش..

تنسال دموع صباح على خديها. فإذا بلمعي ينظر في عينيها العسليتين؛ فتهدأ نبرة صوته:

- اهدأي يا صباح كلنا في الهوى سوا.

يمسح دمعها بكفه:

- تزوجني يا لمعي. أكون لك خادمة طول العمر.
- بم أتزوجك يا صباح؟ ما أجمعه في الشمس أنفقه في الطراوة.
- خميس الدلوعة يلح على خالتي فوزية لتقنعني بالزواج منه.
- قلت لك أكثر من مرة لا تقفي في التراسينة. لا أحب أن ينظر إليك هذا الرجل.

تبتسم صباح تبدو عليها الفرحة بكلمات لمعي وغيرته الشديدة عليها، وبينما تنظر صباح إلى لمعي بشفقة؛ يدير وجهه ينظر إلى صفحة البحر المترقرقة؛ يأخذه شرود يخفت معه وهج ابتسامته المعتادة:

*****

في غرفة مظلمة ذات نافذة وحيدة تكاد تقترب من رصيف الحارة الضيقة. في بيت قديم تحمل كُتل الأخشاب الضخمة حجارته التي أبلاها الزمن. تعيش "الباتعة "مع ولديها "مرسي ولمعي" تركهما لها زوجها، ورحل لا تعرف له أي طريق. تجلس الباتعة أم مرسي على مدخل الحارة؛ تبيع الخضرة؛ لتكسب لقمة عيشها بالحلال، وتربي ابنيها. لا معين لها إلا الله. تختطف الباتعة ساعات قليلة من النوم لتستيقظ فجرا تركب التروماي المتجهة الى الوكالة "سوق الجملة "بالحضرة تشتري الخضار من تجار الجملة في الوكالة، وتعود بالتروماي. تضع الباتعة الخضرة على قفص كبير تغطيها بالخيش المبلل وبين حين وآخر تبلل الخيش برشات ماء كي تحفظه طازجا، وما أن شب "مرسي "حتى راح يساعدها على المعايش؛ يعمل خبازا في الفرن البلدي. بينما الصغير "لمعي "الذي لا يعي صورة أبيه يلعب مع الصغار في الحارة، وما أن شب عن الطوق حتى ألحقته أمه بالعمل في مصنع المكرونة يعبئ أجولة الخيش. حتى جاء شيخ الحارة لاستدعاء "مرسي "للخدمة العسكرية، ومنذ ذلك اليوم لم يعد مرسي من حرب فلسطين، تردت حال "أم مرسي "الصحية لفقدان ابنها في الحرب؛ فما مر العام حتى لحقت بابنها، وتركت لمعي وحيدا. لم يجد "لمعي" سوى أحضان البحر بعد فقد أخيه و أمه؛ يجلس للصيد بالساعات، وقد يبيت هناك. يتنقل من عمل لعمل، وعندما تضيق به الحال يرتمي في حضن البحر يشكو له همومه، ثم يعود إلى حجرة أمه التي تضمه ينام فيها باليومين لا يدري عن الدنيا شيئا، وما أن يفيق حتى يعود للتسكع بين الأعمال مرة أخرى.

*****

تلاحظ صباح غياب الابتسامة المعهودة عن وجه لمعي؛ تربت على صدره بحنو، وتبادره:

- نتزوج، وأعمل وأساعدك، وننجب أولاداً، ونربيهم كما تمنينا أن نكون.
- كفانا همًا. نريد أن نستمتع بوقتنا.

هبت نسمات باردة مع غروب اليوم القائظ شردت من البحر تلاعبت بشعر صباح الكستنائي فأنعشتهما لتعود الابتسامة لوجهيهما فتبادره صباح قائلة:

- أنا جعانة.

بحماس وابتسامة عريضة ينتفض لمعي يضع يده في جيبه يخرج منه نصف ريال:

- معي نصف ريال؛ تعالي ناكل عند طنطاوي، وندخل سينما" التتويج "بتعرض فيلم "سمارة ".
- بجد والنبي.

يسيران على الكورنيش؛ تنتاب صباح سعادة غامرة؛ فتغني:

لو عديت على بيتنا. ما تبصش ناحيتنا.

اعمل ماشي في حالك. أو مش واخد بالك.

ألا تبان حكايتنا. لو عديت على بيتنا.

- صوتك حلو يا صباح.
- خالتي فوزية نفسها أغني معاها في الأفراح.
- لأ. الأفراح لأ يا صباح.

تملأ الابتسامة وجه صباح:

- بتغير عليَّ يا لمعي؟
- طبعا يا بت.

يكاد قلب صباح يقفز من الفرحة. تطبق على ذراع لمعي تتأبطه، وتركن رأسها على كتفه بينما تتهادى في دلال. يدندن لمعي بمونولوج لإسماعيل ياسين:

كلنا عاوزين سعادة.. بس فين هي السعادة.

ولا إيه معنى السعادة.. قولي يا صاحب السعادة.

قولي. قولي.

تحيط نسائم العصاري بهما تحمل إليهما عطر الحب؛ يسيران وقد غمرتهما السعادة.

*****

يتخذ سائق الليموزين شارع فؤاد يمينا ثم يدلف إلى شارع صلاح سالم وفي نهايته يدخل يمينا إلى شارع البورصة القديمة وفي منتصف الشارع على اليمين يتوقف أمام أوتيل، وفجأة يطرق مسامع علام صوت سائق الليموزين:

- هذا الأوتيل مناسب؛ أرجو أن يعجبك يا باشا.
- أشكرك جدا.

يناول علام السائق أجرته، ويغادر السيارة بينما يحمل السائق الحقيبة وأمام موظف الاستقبال ينشغل علام بكتابة بياناته لحجز غرفة في حين يبتسم سائق الليموزين

لموظف الاستقبال الذي يناوله ورقة بخمسين جنيها يقبلها ويضعها في جيبه، وينصرف. يفرغ علام حقيبته ويرتاح قليلا، وفي المساء يتصل بابنته ثم حفيديه عبر الانترنت؛ يطمئنهم على سلامة وصوله، ويبلغهم بمقر إقامته المؤقت حتى ينتقل لبيته القديم. يقضي علام ليلته مضطرم الأشواق للإسكندرية التي ما أن اشتم هواءها حتى ارتاحت روحه واطمأنت نفسه ودبت في جسده طاقة الشباب؛ فوجد أنه ليس في حاجة إلى العكاز؛ فهو يستطيع الآن المشي بدونه. في الصباح الباكر يستيقظ علام من نومه؛ يخرج للكورنيش بدون عكازه. يحمله الحنين الجارف لبحر الإسكندرية وشوارعها؛ ينتابه شعور قوي بالرغبة في الطيران فوق المدينة التي عاش فيها معظم عمره؛ فهو يهيم شوقا في حب مدينته؛ يضيء وجهه بالفرحة والسعادة. كل ذرة في كيانه تشتاق لشوارع الإسكندرية. كل نبضة في قلبه تصرخ بذكريات متضاربة. يود أن يجرى في شوارعها ولو حافيا كي ترتوي روحه الظمأى من حضنها الدافئ. يتوق للعودة لبيته القديم في بحري يشتعل حماسة لفتح مكتبته؛ وبيع الكتب. يصل إلى الكورنيش، وأمام البحر يقف علام على شاطئ ذكرياته. تعانق عيناه الأمواج ترتمي روحه في أحضانها. السحب الداكنة ترعى في السماء تحتضن الطقس في عناق شتوي دافئ. فتهرع الروح لتطرق أبواب الذكريات؛ فترخي ذراعيها وتفتحها عن أخرها لتحتضنها؛ ينساب من بين شفتيه نداء لمن رحلوا. لقد دارت الأيام بالطائر المهاجر، ولحق بجناحيه عطب الشيخوخة؛ فصار التحليق حلما صعبا؛ هكذا هي الأيام تتبدل من حال الى حال. تصافح عيون علام الناس:

- لقد تغيرت الإسكندرية كثيرا (محدثا نفسه).

ولم يمض كثير من الوقت حتى ماجت الطريق بالسيارات تعوي؛ فيستدير مقفلا حيث الأوتيل. يصعد إلى غرفته يطلب الشاي بالنعناع، ويخرج إلى الشرفة ليشاهد الناس في الشارع. فإذا بالنادل يدخل ليضع أمامه الشاي، وفي حين يجلس مسترخيا يحتسي الشاي تقع عيناه على لافتة مثبتة على شرفة في المبنى المقابل تلفت انتباهه مكتوب عليها (صبري كامل المصري المحامي) لا تحيد عيناه عن اللافتة تسبح روحه في ذكريات الماضي شاردة.

*****

على قهوة أنح في الأنفوشي..

يجلس فكري بصحبة لمعي فيقبل عليهما صديقهما "علام الرشيدي "الذي نشأ معهما في نفس الحارة. يكبر فكري ولمعي بعامين. من أسرة ميسورة؛ لدى والده دكانا للعطارة في سوق الميدان. نال علام شهادة التجارة المتوسطة؛ يعمل محاسبا في" باب ١٠ "لدى شركة تخليص جمركي. يهوى قراءة الكتب. دائم التردد على مكتبات بيع الكتب القديمة؛ يذهب إلى المكتبة الحجازية في زاوية الأعرج بحي

بحري. يشتري الكتب من هناك. بل كان يقرأها أحيانا وهو واقف أمام أكوام الكتب الكثيرة. لا يترك تجمعا ثقافيا إلا وذهب إليه يداوم على حضور تلك اللقاءات يتابع فيها المناقشات الثقافية والتجمعات السياسية التي تعرف فيها إلى الأستاذ كامل المصري الذي يهتم دوما بالمؤتمرات السياسية فهو من أشد المؤيدين للجمهورية الجديدة وقادة يوليو؛ يؤمن بمبادئ يوليو ويسير على دربها.

يلقي "علام "التحية على صاحبيه مبتسما:

- مساء الخير يا جماعة.
- أهلا يا "علام ". تفضل. (ينظر فكري لرفيق علام مبتسما):
- تفضل يا محترم.
- هذا صديقي "كامل أفندي المصري "مدرس إلزامي. يسكن قريبا من جامع "سيدي ياقوت "كامل أفندي رجل وطني مثقف.
- العفو يا أستاذ علام حضرتك أستاذنا.
- هذا "فكري صابر "وهذا "لمعي المناديلي" وشهرته لمعي صنارة. رفاق العمر منذ الطفولة وجيران؛ نسكن نفس الحارة أمام حلقة السمك.
- يا أهلا يا كامل أفندي. قهوتك إيه؟
- مرة أخرى؛ فقد تأخرت على أسرتي.
- هل أنت متزوج؟
- وعندي بنت أيضاً.
- زي علام. ربنا يبارك لكما فيهما.
- ممنون. الله يحفظك.
- أستأذنكم يا جماعة. ليلتكم سعيدة.
- مع السلامة يا أستاذ كامل.

يجلس علام يحتسي الشاي بالنعناع يسأله فكري:

- من هذا يا علام؟
- أستاذ "كامل "مدرس في مدرسة رأس التين الابتدائية. تعرفت إليه في ملتقى الشعراء والأدباء.

يقاطعهما لمعي:

- عندي لك مفاجأة يا علام ستعجبك.
- خير يا لمعي؟
- فكري ينوي الزواج.

تملأ الابتسامة وجه علام. ينظر إلى فكري. يربت على فخذه:

- خيراً تفعل. مبروك يا فكري.
- الله يبارك فيك.

بابتسامة حانية ينظر علام إلى لمعي يربت على كتفه:

- وربنا يهديك يا لمعي وتثبت في عمل وتتزوج.
- لا. أنا كده مبسوط.
- لكن الاستقرار أفضل يا لمعي. ها أنا في وظيفة وتزوجت وأنجبت. وفكري سوف يلحق بي.
- لا تحاولوا إقناعي؛ أنا أحب عيشة الحرية.
- قل له يا علام ربما يعقل.

بابتسامته المعهودة التي تملأ وجهه ليخفي آلام واقعه المرير الذي يتقبله بنفس راضية:

- أنت موظف وعندك بيت، وفكري لديه عمل أيضاً. أنا ليس لي أهل ولا بيت. من ترضى بحالي تلك؟
- لابد أن تعرف أنك لست مالكاً أمرك، وأن أمرك بيد الله لا يمنع إلا لحكمة، وأن الرضا هو سر السعادة وراحة البال، وضيق الحال لا تمنع أن تستقر في عمل، وتتزوج؛ فتنعم بدفء الأسرة والبيت.

يبادرهما فكري قائلا:

- لا يقتنع أبداً. رغم أنه يميل لـ"صباح "، وهي تتمناه وترفض من يتقدم لها.
- "صباح" التي تعمل في بيت "فوزية العالمة "؟
- نعم. تحبه، وتقدم لها عريس، وقد طلبت منه أن يتزوجها.
- إذن على بركة الله.

تبدو على لمعي علامات الاقتناع والموافقة:

- وأين أتزوج؟
- في حجرتك.
- ومن أين أنفق عليها؟
- تبحث عن عمل ثابت وتلتزم. هيا يا لمعي انتهز الفرصة. ألا تحبها؟
- أحبها لا أنكر. اتركوني أفكر.
- اتركه حتى يتزوجها خميس الكهربائي و تجري به السنوات، ويجد نفسه في الدنيا وحيداً لا زوجة ولا ولد .
- لن يتزوجها أحد غيري.
- إذن خير البر عاجله، ومن ستتزوج يا فكري؟

يسرع لمعي بالإجابة مبتسما:

- "نعمة ".
- اسمها نعمة؟
- نعم. تعمل في بيت الخواجة "باروخ "ومنذ رآها وتبدلت حاله؛ حب من أول نظرة يا سيدي.

يلتفت علام إلى فكري:

- يعني نويت خلاص؟
- نعم يا "علام ". وقد عقدت النية على أن أتزوجها.
- سألت عليها؟
- يتيمة الأبوين. تعيش مع عمها وأخويها، وقد أخبرت أمي ووافقت.
- ربنا يتمم بخير يا فكري، والعاقبة لك يا لمعي.
- ماذا تشربون؟ على حسابي؛ حلاوة العروسة.
- وأنا سأسرع بالزواج.
- ممن يا لمعي؟
- ومن غيرها. صباح. بنت غلبانة وراضية بحالي.
- على بركة الله. نذهب معك أنا وفكري نطلب إيدها من الأسطى فوزية.
- ؛ سأرتب لذلك في أقرب فرصة.

يبتسم علام:

- فليكن فرحك منتصف الشهر مع يوم جلاء الإنجليز ومصر كلها بتفرح.

يضحك الجميع، ويمضون السهرة على المقهى في أحاديث متنوعة فالجو صيف ويحلو فيه السهر.

في بيت متواضع بذات الحارة. يجلس فكري مع أمه "زينب ". امرأة في الخمسين ترتدي الأسود. يتوسط الحائط المواجه للكنبة صورة شاب ثلاثيني نحيف الوجه. يخط في وجهه شارب منمق. ترتسم في وجهه الجدية، وتفيض عيناه شفقة وحنانا. تجلس زينب على الكنبة بجوار النافذة تشرب من"القلة "ثم تضعها في صينية تتوسط النافذة المطلة على الحارة. تتناول زينب الشاي بالنعناع مع وحيدها فكري. تنظر كالعادة لصورة زوجها "صابر "ابن الجيران الذي خطف قلبها أيام صباها، وتكلل هذا الحب الطاهر بزواجهما. أنجبت زينب "فكري "قرة أعين أبيه وأمه. يعمل صابر على بلنصات الصيد يغيب بالأيام في البحر، ويعود محملا بالأشواق لصغيره وحضن زوجته، وتمضي حياتهما في سعادة. ذات يوم يقبّل صابر صغيره، ويودع زوجته، ويخرج لرحلة صيد.

- نفسك في حاجة يا زينب؟
- ترجع لنا بالسلامة.

يبتلع البحر "صابر" وما زال فكري صبيا؛ تعتني به زينب، وتغلق الباب في وجه كل من تقدم إليها بطلب الزواج من أجل صغيرها، وما أن شبَّ فكري وصار يافعا حتى ألحقته بالعمل لدى الخواجة أليكو.

تبتسم زينب فرحة بصغيرها الذي صار رجلا ويريد الزواج:

- لابد أن تسأل عنها وعن أهلها أولا.
- طبعاً سأسأل.. أنا متأكد أنها ستعجبك يا أمي. إنها بنت حلال.
- على بركة الله يا فكري. ليس لي غيرك في الدنيا منذ مات أبوك
- منى عيني أراك في الكوشة، وأفرح بأولادك.
- لا تقلقي يا أمي. سأبحث عن مسكن قريب منك؛ فلا أفارقك أبداً.
- تسلم لي يا نور عيني. قلبي وربي راضيين عنك.

يقبل يديها في حنو:

- ماذا سنأكل من يديك الحلوين يا أمي؟
- صينية سردين.
- الله. تسلم إيدك يا ست الكل.

وفي أحد أزقة باب الكراستة قرب شارع السبع بنات في بيت قديم مثبت فوق حائط المنزل فانوس ميري يأتي "المشعلجي "رجل طويل القامة نحيفا. يحمل عصاه الطويلة فوق كتفه. أعلى العصا مخطاف نحاسي صغير. يرفعها ليفتح بها باب الفانوس، ثم يرفع يد صمام أسفل فوهة شعلة الفانوس بالمخطاف؛ فيندفع الغاز خلال مواسير مدفونة تحت الأرض تأتي من مولدات شركة "ليبون "للكهرباء بكرموز؛ فتشتعل الشعلة تبدأ خافتة ثم ما تلبث أن تتوهج ليعم النور؛ فيعلو تهليل الصغار الذين يواصلون لعب الكرة الشراب في ليالي الصيف الصاخبة على ضوء الفانوس.

في ذلك المنزل وفي حجرتين صغيرتين من الداخل ليس فيهما سوى نافذة واحدة تطل على المنور يعيش "محمود" رجل في العقد السادس. ينشأ محمود في أحضان الريف. لم يذق فيه سوى مرارة الفقر. ليس له في الدنيا سوى أخيه "عبد المقصود ". يهجر محمود القرية بحثا عن عمل أفضل وحياة أوسع؛ فلربما يعود لقريته بثمن قيراطين يزرعهما مع أخيه. لكن الحال لم تتغير كثيرا؛ لم يجن محمود من عمله سوى مرض ينهش رئتيه نهشا؛ لم يحظ بزيجة ولا أولاد. فقط تشققت قدماه لطول السعي بحثا عن لقمة العيش. محمود ممدد على سرير بأعمدة معدنية يسعل بشدة. بينما تجلس نعمة على الكنبة أمامه تتحدث إليه:

- هذا كل ما حدث يا عمي.
- على خيرة الله يا نعمة. يأتي ويشرفنا.
- ولمن أترككم يا عمي؟
- يحلها المولى يا ابنتي.

تلتفت نعمة للباب المفتوح يدخل شاب يصغرها بعامين.

- ألم يأت "صلاح "معك يا "عطية "؟
- لا. انتهيت من عملي، ورجعت إلي البيت مباشرة، ولم أمر عليه في المقهى.
- إنه يتأخر كثيراً يا عمي، وأنا انتهيت من إعداد الطعام.
- لن آكل يا نعمة. أشعر بالتعب؛ صدري يؤلمني.
- سأغلي لك ينسون يا عمي.
- أود أن أطمئن عليكم قبل أن أموت. ليس لكم أحدٌ في هذه الدنيا بعدي.
- ربنا يخليك لينا يا عمي.

يسعل العم محمود سعالا شديدا، ونعمة أمام باجور الجاز؛ تغلي ورق الجوافة في الماء، تنظر لعمها بعين الشفقة لمرضه.

*****

قبل سنوات وفي قرية شيشت الأنعام مركز إيتاي البارود مديرية البحيرة. .

وقت الضحى وأشعة الشمس تفرد جناحيها على القرية، وعلى المصطبة بجوار بوابة الدار الخشبية المفتوحة؛ تنبعث من داخلها رائحة طعم البيت الريفي البسيط المحملة بالخير والبساطة يجلس صاحب الدار عبد المقصود وصديقه فتح الله يتشاركان في طبق بصارة:

- الله ينور يا عبده؛ البصارة جميلة.

عبد المقصود ضاحكا:

- بالهنا والشفا. بس أوعاك تميل ع البصارة يعجبك ميلك تبات مشلح طول الليل ما تلحق تعين ديلك.

تملأ الابتسامة وجهيهما. إلى جوار باب الدار حصيرة من الخوص ملفوفة ترتكن إلى الحائط الطيني، وبعض الطيور الداجنة تسير الهوينى تلتقط من الأرض طعامها. تخرج عليهما "نعمة "صبية لا تتعدى العاشرة من عمرها. جميلة الملامح لا تستطيع علامات الفقر إخفاء حسنها. تحمل صينية الشاي يتوسطها براد أزرق قد أخفي معظم لونه أثر نار الكانون. بجواره كوبان فارغان وملعقة صغيرة متهالكة وقرطاس سكر نحيل وبعض أعواد النعناع؛ يبتسم فتح الله:

- تسلم إيدك يا نعمة.
- تعيش يابا فتح الله.
- ضعي الصينية هنا وادخلي لأمك.
- حاضر يابا.
- حضرلك الخير يا بنتي.

يصب عبد المقصود الشاي لفتح الله ". عبد المقصود رجل في نهاية الثلاثين من عمره. يرتدي جلبابا ريفيا يعتمر طاقية شبيكة على رأسه. نحيف الجسم. في يده سيجارة لف يناولها لصديقه "فتح الله" فلاح بسيط نحيف الجسم تغلب الصفرة على وجه؛ بطنه منتفخة جراء مرض لحق به. يلف عبد المقصود لنفسه سيجارة:

- وبم سميت المولود يا عبده؟
- صلاح.
- وأنا عند قولك. ألا تنوي صلاح حالك، وتبتعد عن مقهى "عابدين النمر "، والغياب عن بيتك بالأيام في الموالد و الأعراس؟
- فيم نقضي أوقاتنا؟
- انتبه لعملك والتفت لأولادك؛ عندك بنت يا عبد المقصود.
- ربنا موجود.
- ونعم بالله، ولكنك تعلم كما يعلم كل الناس أن عابدين النمر يتاجر في الأفيون

تزوغ عينا عبد المقصود؛ ويتلفت حوله:

- حد الله بيني وبينه. أنا أقضي بعض الوقت على المقهى فقط.
- أخوك "محمود "ذهب للإسكندرية؛ يعمل في مكبس القطن. لم لا تذهب إليه وتعمل معه هناك، وتبتعد عن رفاق السوء هنا؟
- "محمود "صاحب مرض بسيط الحال. هل أجعله يحمل همي وهم أسرتي أيضاً.
- بل تعمل معه في مينا البصل، وتعيش في إسكندرية؛ وتهجر تلك الصحبة الفاسدة التي ستضيعك.
- ربنا يسهل.

تخرج نعمة من الدار مسرعة تتلاحق أنفاسها:

- أبي. أبي. أمي لا ترد علينا.

يسرع عبد المقصود للداخل فزعاً:

- جليلة. جليلة. ردي عليَّ.

نعمة تحتضن أخاها الرضيع "صلاح "وإلى جوارها يقف أخوها الأوسط "عطية "باكياً. يغطي "عبد المقصود" وجه زوجته تصرخ الطفلة صرخة مدوية.

- أمي. أمي.

ينتهي المقرئ من تلاوة القرآن ينفض العزاء يقف فتح الله مع عبد المقصود:

- شد حيلك يا عبد المقصود.
- الشدة على الله يا فتح الله.
- ماذا تنوي؟
- البركة في نعمة؛ كبرت وتعتني بأخويها.

تخرج من الدار نعمة تحمل أخاها الرضيع صلاح.

- إلى أين يا نعمة؟
- سأذهب للخالة فتحية؛ ترضع صلاح مع مولودها الجديد.
- انتبهي لنفسك ولأخيك.
- حاضر.

تمر الشهور، وفي الدار تجلس نعمة تحتضن الصغير، وتناول بعض الخبز والجبن لأخيها عطية:

- إلى أين يا أبي؟
- مقهى عابدين النمر. انتبهي لأخويك ولنفسك أنت كبرت الآن يا نعمة
- سأذهب للخالة فتحية لترضع صلاح.
- ضعي إخواتك في عنيكي يا نعمة.
- حاضر. مع السلامة يا أبي.

تمر السنوات وتكبر نعمة وتبلغ مبلغ الفتيات، وتزداد بهاء، ويشب عطية عن الطوق، وصار صلاح صبيا يلهو، وفي قهوة عابدين يجلس عبد المقصود يومئ برأسه للقهوجي فيعد له كنكة القهوة وبحذر يخرج من بين طيات جلبابه شيئا يسقطه في الكنكة وهي تغلي ثم يصبها ويقدمها لعبد المقصود:

- صباح الفل.

ينتهي عبد المقصود من لف سيجارته يشعلها ويرشف قهوته؛ وما أن انتهى حتى بدأ يتململ في جلسته. يدلك صدره. تجحظ عيناه؛ يهرع إليه رواد المقهى.

في ساحة القرية يجلس رجال القرية. المقرئ ينتهي من تلاوة القرآن. ينفض العزاء. يجلس فتح الله إلى جوار محمود:

- الله يرحمه. كم نهيته عن صحبة عابدين النمر، وتعاطي المخدرات يا محمود.

- الله يرحمه ويسامحه.
- ماذا ستفعل الآن؟
- ليس للأولاد في الدنيا غيري؛ سيعيشون معي في الإسكندرية، ورزقي ورزقهم على الله.
- الله معك يا محمود. أنت غير متزوج كيف سترعاهم؟
- لنا الله. نعمة صارت عروساً؛ تراعي هي البيت.

الإسكندرية في منزل العم محمود في السبع بنات..

- أنا ذاهب للعمل يا نعمة انتبهي لنفسك ولأخويك.
- لحظة يا عمي.
- ماذا تريدين يا نعمة؟
- عطية كبر ويستطيع العمل، وقد وجد عملا عند حسان الفرارجي وأنا أيضاً أستطيع العمل ومراعاة البيت معا، وممكن أن نجد عمل يناسب صلاح يجب أن نعمل ونشق طريقنا.
- لو كنت أملك القدرة ما جعلتك تعملين أبدا.
- حفظك الله لنا يا عمي.
- وماذا ستعملين؟
- زوجة عم حسان الفرارجي أخبرتني أن خواجة يسكن في محطة الرمل يريد خادمة.
- خادمة يا نعمة؟
- عمل حلال يا عمي، واطمئن.
- على بركة الله يا بنتي.
- على فكرة يا عمي.
- المعلم الدحليشي صاحب المقهى يريد صبيا، وأود أن يعمل صلاح عنده.

يمسح العم محمود دمعته:

- عشت عمري في مكبس القطن. لم أتزوج، ولم أجن سوى المرض من غبار القطن. سامحيني يا نعمة.

تربت نعمة على كتف عمها:

- ربنا يحفظك لنا يا عمي. لقد كبرنا كفاية لنشق طريقنا في الحياة.
- ربنا يمد في عمري حتى تتزوجي، وأطمئن عليك وعلى أخويك.

*****

تصب نعمة مشروب ورق الجوافة المغلي لعمها الذي ألزمته العلة الفراش بمعاش تقاعد يكفي بالكاد.

- تفضل يا عمي.

يدخل صلاح لاهيا.

- ما أخرك يا صلاح؟
- عمل المقاهي لا ينتهي، والمعلم الدحليشي يعتمد عليَّ في كل شيء.
- انتبه لنفسك يا صلاح.
- لا تقلقوا. أنا واعٍ كفاية لما أفعل.
- رائحتك دخان تبغ يا صلاح. هل تدخن؟
- أبداً. إنه أثر تدخين زبائن المقهى.
- الطعام جاهز. هيا.

تضع نعمة طعام عمها في صينية أمامه على السرير في حين يجلس عطية وصلاح وأمامهم الطبلية تشاركهم نعمة الطعام.

- هي اللحمة طلعت؟ (قالها صلاح ضاحكا)
- مدام مارسيل الله يسترها أعطتني إياها.
- تسلم إيدك يا نعمة.
- تعيش يا عطية. هل أعجبك الطعام يا عمي؟
- الله ينور يا نعمة.
- أين طبق البصارة؟ (يسأل صلاح وهو يضحك)

يضحكون جميعا، ويقضون ليلتهم وهم سعداء.

محطة الرمل.. دكان الخواجة

في أخر النهار فكري منهمك في عمله، والخواجة يستمع للأخبار في الراديو بينما يرتشف قهوته على مهل، وينفث دخان سيجارته يبادره فكري متسائلا:

- يا خواجة.
- نعم فكري.
- ماذا في الراديو يشغلك لهذه الدرجة؟
- أخبار لا تطمئن؛ توترات وقلاقل قد تغير الكثير من مجريات الأحداث في مصر.

فإذا بلمعي يقبل تبدو عليه السعادة، وفي نبرة صوته حماس:

- مساء الخير عليكم.

- كالوبويما (مساء الخير)
- تفضل يا لمعي. تفضل.
- استعد أنت وعلام؛ فقد اتفقت مع الأسطى فوزية على الزواج من صباح.

يترك فكري المكواة من يده، ويندفع في فرحة يحتضن لمعي:

- ألف مبروك. متى؟
- يوم الخميس نعقد القران في "أبو العباس "وأنت وعلام شهود العقد، والأسطى فوزية ستقيم لنا حفل الزفاف عندها.
- سينخاريتيريا لمعي.
- الله يبارك فيك يا خواجة.
- العاقبة عندك يا فكري أنت ونعمة.
- ألف مبروك يا صاحبي.

وفي يوم الخميس بعد صلاة العصر يذهب لمعي برفقة فكري وعلام لصالون الأسطى "فرحات "المزين على أول الحارة. يجلس لمعي على الكرسي، ويبدأ الأسطى فرحات في طقطقة المقص في الهواء باحترافية، وهو يحكى لهم مفتخرا حكاية مأمور قسم الجمرك الذي حلق لحيته عنده سنة ١٩٤٥، وقد سمعوا منه تلك الحكاية كلما جاءوا للصالون. ولا ينفك يذكرهم بأنه من طاهرهم وهم صغار عندما كان يعمل في صحة البلدية فيضحك الجميع. في حين يهش صبى المزين بالمنشة؛ ليضمن البقشيش من العريس وما أن انتهى الأسطى فرحات من لمعي حتى بدأ يرش عليه ماء الكولونيا المعتقة:

- نعيما يا عريس.
- الله ينعم عليك يا عم فرحات.

يناوله فكري نصف ريال؛ يتهلل وجه الأسطى فرحات المزين:

- عقبال ليلتك يا أسطى فكري. ألف مبروك.
- الله يبارك فيك يا عم فرحات.

يناول علام صبي المزين" نكلة "يتناولها فيقبلها، ويضعها في جيبه فرحا، ويهش على ظهر علام بالمنشة. يصحب الصديقان لمعي إلى بيت أم فكري؛ ليستحم حمام العريس. يرتدي العريس البدلة، ويقوم علام بربط الكراڤت للعريس الذي لا يجيد ربطها. ينزل الأصدقاء الثلاثة السلم يحيط بالعريس جدعان الحارة يزفونه. يركبون الحناطير التي تنطلق لتحضر العروس من الكوافير. تخرج العروس من الكوافير ترن الزغاريد في الجو يحيط الجدعان بالعروسين يزفونهما، وتنطلق الحناطير تختال بالعروسين والمعازيم. تجلجل أجراسها حتى وصلت الى البياصة، وتوقفت أمام بيت الأسطى فوزية تستقبلهم فرقة "حودة كرامة" بآلاتها النحاسية، والحارة

المزدانة بالأنوار. تدور أكواب الشربات، وعلب الملبس المستكاوى توزع على المعازيم. تنطلق الزغاريد. تبدأ تقاسيم الأوكورديون؛ ينصت الجميع فيصدح مجلجلا صوت "الشيخ أمين "بالموال، وما أن انتهى من الموال حتي صاح الحاضرون في صوت رجل واحد:

- صلاة النبي. دي للنبي. ملحة في عينك يالي ما تصلي.

يعلو إيقاع الطبلة يرافقها الرق؛ يبدأ الشيخ أمين في الغناء؛ ويهب "حلال عليه "يرقص وسط تصفيق الحضور، وبعد انتهاء وصلة الشيخ أمين تغني الأسطى فوزية وصلتها التي تشتهر بها وكثيرا ما يطلبها المستمعون منها في الأعراس:

الحنة. الحنة يا قطر الندى

شباك حبيبي يا عيني جلاب الهوى

أخدته في حضني ونمنا سوا

وبوسته وباسني يا عيني وآدي اللي جرى

الحنة. الحنة يا قطر الندى

شباك حبيبي يا عيني جلاب الهوى

ترقص أمامها الراقصة على رتم الطبلة والرق، ينضم لها رجل يرتدي زي نسائي يتدلل في مشيته تغطي وجهه المساحيق الفاقعة. يرن بالصاجات، ويرقص بميوعة؛ تشتعل أجواء الفرح بالبهجة والسرور وسط التهليل والتصفيق.

يشرب فكري وعلام الشربات، وفي يد كل منهما علبة الملبس:

عقبال ليلتك يا فكري.

- تعيش يا علام يا أخويا.

وتمضي ليلة العرس على أجمل حال؛ يتبارى فيها الأرتيست فيقدم كل منهم فقرته التي يحبها الجمهور.

يصحب فكري وعلام العروسين لبيتهما، وما أن دخل الحنطور الحارة حتى انطلقت زغاريد الجيران ترحيبا بالعروس الجديدة على الحارة. ينصرف فكري وعلام ويدخل العروسان حجرتهما:

- نورتي بيتك يا عروسة.

في خجل جم تجيب صباح:

- منور بك يا لمعي.

وخلف درفة الدولاب تستتر صباح عن عيون لمعي يعتريها الخجل؛ تبدل بفستان الزفاف قميص النوم الأبيض التي أهدته لها الأسطى فوزية لتلبسه لعريسها في ليلتهما الأولى في حين خلع لمعي البدلة، وارتدى البيجامة الكستور. تنهمك العروس في إعداد الطبلية تضع عليها طعام العشاء الذي أعدته لهما الست أم فكري، وما أن انتهى العروسان حتى نهضت صباح توقد وابور الجاز لتعد الشاي. يتابعها لمعي، وهي تختال في قميصها الأبيض مثل حورية في الجنة؛ يمد يده يمسك بكفيها، تغوص نظراته في أعماق عينيها، يضمها إليه؛ تتوسد صدره. ترتدي جسده الوثير. ينسدل قدها المياس في انسيابية حريرية؛ تشتعل وجنتاها حمرة، تتوارى خلف أجفان الخجل عيناها، يطوق عنقها بذراعيه، تتقد نار أشواقه؛ تلتصق راحتاه بخصرها النحيل، تعتريهما رعشة الاشتياق، يضم زهر شفتيها، وفي قلب الصمت المفعم بعطر الحب، أغمضا العيون؛ حفيف أنفاس دافئة، تداعب أوتارها شغاف قلبيهما؛ يقطر بوحهما شهدا؛ تملأ وجه لمعي البسمة بينما يزداد وجه صباح احمرارا:

- بتحبيني يا بت؟
- أكتر من روحي يا ولا.

يصفق لمعي في سعادة غامرة:

- السهرة الليلة صباحي.

(٢) أنت الحب

في المساء يتوجه علام إلى مكتب صبري كامل المحامي؛ يستقبله وكيل المكتب بالترحاب:

- دقائق ويكون الأستاذ معك. نعمل لحضرتك قهوة.
- أشكرك يا ابني.

يخرج الوكيل من حجرة المحامي:

- الأستاذ في انتظارك. اتفضل حضرتك.

يقف الأستاذ صبري ترحيبا بزبونه:

- أهلا وسهلا اتفضل يا فندم. تحت أمرك.

يجلس علام أمام صبري فينظر إليه متفحصا؛ يفتر ثغره.

- أنت لا تعرفني، ولكنني أعرفك جيدا. أنا علام الرشيدي صديق والدك الأستاذ كامل المصري.

ينهض صبري من وراء مكتبه متهلل الوجه يرحب بعلام؛ يجلس أمامه:

- عم علام الرشيدي. طبعا أتذكرك جيدا، وأتذكر يوم زرتك مع أبي الله يرحمه عندما فتحت مكتبة لبيع الكتب. وأهديتني كتابا.

يبدو على علام التأثر الشديد لما يسمع:

- متى وكيف مات الأستاذ كامل؟
- الجمعة ٤ أبريل ٢٠٠٣ كان يوما لا ننساه. بعد أن شاهد على شاشة التليفزيون سقوط بغداد، واقتحام الجيش الأمريكي لها؛ بات ليلة الخميس حزينا جدا، وفي الصباح دخلت عليه لنصلي معا الجمعة في جامع المرسي أبي العباس؛ فقد تأخر على موعد استيقاظه؛ فكان أمر الله. صلينا عليه العصر في جامع العمري، ودفن في مقابر العامود.
- الله يرحمه، ويرحم كل الحبايب رفاق العمر.
- الله يرحمهم جميعا. مؤكد كانت أيامكم جميلة يا عمي؟
- بالفعل؛ لم تكن أيامنا بتلك الشفرة المستعصية على الفهم. كانت بسيطة، وأوقاتنا جميلة وإن قست علينا الظروف؛ لكن تلك هي سنة الحياة.
- و المعيشة في أمريكا أكيد كانت أفضل؟
- لا أنكر؛ فالإمكانيات متوفرة، ولكنني آثرت الصمت في غربتي كي أرعى أحفادي اللذين فقدا والدهما في تفجيرات سبتمبر؛ يا ولدي خبز الغربة مر ولو بالعسل عاجنينه، وخبز الوطن حلو ولو بالمر خابزينه.
- الله يرحم ابن حضرتك يا عمي.
- تعيش يا ابني. لكنني وفي الفترة الأخيرة على وجه التحديد قررت العودة ليضمني تراب الأرض التي لم أحب سواها يوما؛ فيرافق جثماني جثامين رفاق عمري كما رافقتهم في حياتي.
- أطال الله عمرك.
- يا ولدي في ليالي الغربة الباردة مهما اتقدت جذوة خيالك لتستدفئ بطيف وجوه قد باعدتها عنك المسافات والسنوات ستواجه جدلا سفسطائيا عقيما.

- حمد لله على سلامتك يا عمي، وربنا يعطيك طول العمر.
- أشكرك يا ابني. أتعرف لم أخف يوما إلا كوني أموت فأدفن في أرض غريبة. لكنني مع الذكريات التي لها وقع السحر أيقنت أن العودة للوطن حتمية، وأنني لابد يوما سأعود إلى الإسكندرية؛ تظللني على الكورنيش غيمة شتوية؛ تمطر فتبلل ريقي الذي تيبس من الحرمان بعيدا عن الوطن.
- هل وجدت الحال كما تركتها؟
- ما أن وطأت أقدامي أرض الوطن أخيرا حتى بدا لي أن الزمن كان أسرع من خطواتي فقد تغير كل شيء.
- لا شيء يبقى على حاله يا عمي. نورت إسكندرية ومصر كلها.

ينادي صبري على وكيله يطلب منه إعداد قهوة للضيف العزيز:

- قهوتك إيه يا عمي؟
- سادة
- الآن قد عدت من غربتك الطويلة ألا نضيف لقهوتك بعض السكر؟ (يقولها صبري مبتسما)
- دارت بي الحياة في طرق شتى، فكان من الصعب أن أجد أحدهم من أجلي، ربما كانت الغربة أو الموت أو أسباب أخرى قد تجمعت لتمنعني حلو الحياة، كل ذلك يجعل المحيطين بي يتساءلون عن سبب حبي للجلوس وحيدا أو حبي للظلام والهدوء. فيبدون الاستغراب متعجبين. لماذا أشرب قهوتي سادة.
- كما تحب يا عمي.

يلتفت صبري لوكيل مكتبه قائلا: (واحدة سادة والأخرى مضبوطة) يستدير لعم علام والذ يستطرد حديثه وقد بدا على قسمات وجهه علامات الارتياح أن عثر على صبري:

- في حياتي الخالية من السكر كالقهوة السادة، أخيرا وجدت فيها من يستطيع أن يضيف لها الحلو؛ أنت من رائحة الحبايب يا ولدي.
- تعيش وتفتكر يا عمي.

يطول اللقاء و يتم الاتفاق على كل شيء بين علام وصبري

- لابد أن نقوم معا بزيارة لبيتك القديم في بحري لنرى ماذا نفعل.
- سأكون في انتظارك.

يعود علام للأوتيل ليبيت ليلته وكله شوق أن تنقضي الأيام بسرعة؛ فيعود لبيته ومكتبته.

وفي الصباح يأتي صبري ليصطحب علام إلى بيت بحري، وما أن توقفت السيارة بهما عند أول الحارة حتى نزل علام من السيارة يتأمل الحارة وقد اغرورقت عيناه بالدموع

- على مهلك يا عم علام. هات إيدك.

يسير علام بترو متأبطا ذراع صبري لا ينزع عينيه من على بنايات الحارة التي مازالت تحتفظ ببيوتها القديمة وإن كانت معظمها مهجورة؛ فقد بليت معظمها، ولم تعد صالحة للسكن؛ فغادرها ساكنوها وانتقلوا إلى أحياء جديدة في العجمي والعصافرة والحضرة الجديدة.

وعند مدخل البيت يصعد علام مع صبري السلم للدور الأول حيث شقة علام، وما أن دخلا للشقة حتى جلس علام على الكرسي المغطى بملاءة غير مكترث بالأتربة العالقة في كل مكان:

- سأرسل من يصلح لك كل شيء في الشقة، وينظفها قبل أن تنتقل إليها.
- لا تنس أن تنبه عليهم عدم المساس بأي شيء في حجرة المكتب.
- أين هي؟
- ينهض علام متوجها للباب المواجه لمدخل الشقة يفتحه يتبعه صبري يتأمل مكتبته مندهشا لمحتوياتها وكأنه في متحف. يقف علام أمام برواز ذهبي معلق على الحائط ينظر إليه فتنسال دموعه باكيا. يجلسه صبري على الكرسي ويجلس أمامه.
- وحد الله يا عم علام. إنها حال الدنيا. الله يرحمهم.

يصمت علام عن الكلام لا تحيد عيناه عن الصورة في البرواز شاردا في ذكريات أيامه الحلوة مع رفاق عمره يبدو على وجهه علامات التأثر بغيابهم.

*****

وبعد عرس لمعي وصباح بأسبوعين، وفي منزل العم محمود:

- يا أهلا وسهلا بكم. منورة يا أم فكري. منور يا فكري يا ابني. منورين يا جماعة.
- منور بك يا عمي.
- اتفضلوا الشاي.
- نريد الشربات يا عم محمود. أنا طالبة أيد نعمة لابني فكري.
- نتشرف بنسبكم يا أم فكري.

فكري متحدثا:

- أنا أجرت شقة بجوار أمي؛ كي أرعاها، وسأكون جاهزا بنهاية هذا العام.

- خير ما فعلت يا ابني. طبعا أمك الخير والبركة.
- نقرأ الفاتحة يا عم محمود؟
- على بركة الله. نقرأ الفاتحة.

يقرأ الجميع الفاتحة يبارك علام ولمعي لرفيق العمر. تحتضن أم فكري وصباح العروس يقبلانها. تنطلق زغرودة أم فكري تليها زغاريد متتابعة من صباح. تقدم نعمة الشربات في خجل وتتلقى التهاني؛ يفسح لها فكري تجلس بجواره على الكنبة بينما يقف علام ولمعي بجوار عطية قرب الباب. يقبل صلاح عمه محمود، وتعم البهجة الجميع. تهل جيران البيت يباركون الخطبة وتنطلق الزغاريد تجلجل في أرجاء الزقاق فيعلم القاصي والداني بخطبة نعمة فتنهال التبريكات والزغاريد من الشبابيك والبلكونات، وتعم الفرحة الزقاق؛ يرسل عم "موريس "البقال السكر وزجاجتي شربات نقوطا للعروسين. تعد العروس الشربات لأهل الزقاق؛ ويوزع عطية وصلاح عليهم الشربات. تتجمع النساء في مدخل البيت.، وقد أحضرت إحداهن طبلة تدق عليها؛ تغني صباح بصوتها الرنان أغاني الأعراس. ترقص بينهم جارتهم الست "سيرينا "التي كانت تعمل في شبابها راقصة في الكازينوهات التي تنتشر على كورنيش الإسكندرية، وتقدمت السن بها فأنفقت مدخراتها في بار جولييت بشارع باب الكراستة، وانتهت بها الحال في السبع بنات في حجرة داخل الزقاق فعاشت في كنف أهله الذين يعتبرونها واحدة منهم، وتمضي ليلة العروسين والجميع في سرور بالغ.

في الأسبوع التالي تدعو أسرة علام فكري ونعمة ولمعي وصباح إلى فسحة على البحر ينضم إليهم عند الظهر كامل أفندي وزوجته وابنته فيقضي الجميع اليوم في سعادة غامرة ينادي علام مصور الشاطئ فيقبل في ملابسه البيضاء يعتمر قبعته الأفرنجية ونظارته السوداء:

- خذ لنا صورة للذكرى.

يقف علام وأم أولاده والصغيرين أمامهما إلى جوار كامل أفندي وزوجته التي تحمل صغيرتها، وتقف صباح وهي تتأبط ذراع عريسها لمعي عن اليمين وفي الجهة الأخرى يقف فكري عن يمينه عروسته نعمة تغلفهم جميعا ابتسامة السعادة والألفة؛ يلتقط المصور لهم الصورة. ويمضي اليوم والجميع في سعادة غامرة.

علام مبتسما:

- سأكبر الصورة، وأضعها في برواز مذهب؛ وأعلقها في بيتي للذكرى.

تستمر وتيرة الأيام على خير حال ولا شيء يعكر الصفو.

في مدخل البيت الذي يسكن فيه لمعي..

يلمح لمعي من باب حجرته المفتوح الأستاذ "شفيق "رجل يقترب من الأربعين يعمل موظفا في شركة "سباهي "في منطقة العوايد على ترعة المحمودية. يسكن في الطابق العلوي. قليلا ما يظهر في البيت. لا يصاحب أحدا، ولا يختلط في الجيران. دائم الغياب عن البيت بالأيام والشهور:

- أستاذ شفيق.
- كيف حالك يا لمعي؟ لم أرك من زمن. ما أخبارك؟
- تزوجت، والحمد لله.
- ألف مبروك. لم أعلم كنت مسافرا.

ينتبه لمعي لحقيبة سوداء كبيرة يحملها الأستاذ شفيق. ينقلها من يد ليد؛ تبدو ثقيلة عليه:

- عنك يا أستاذ.
- شكراً يا لمعي سأحملها، وأصعد بها.
- دعني أحملها عنك؛ تبدو ثقيلة عليك.
- لا أريد أن أثقل عليك.

يناول شفيق الحقيبة إلى لمعي بحذر شديد يبدو في عينيه الاضطراب حينما رفعها لمعي ليضعها على كتفه:

- ياه. ماذا تضع فيها؟ إنها ثقيلة حقاً.

يبدو على شفيق بعض الاضطراب يسند الحقيبة من الخلف:

- كن حذرا من فضلك؛ فيها أشياء مهمة.

داخل شقة الأستاذ شفيق يضع لمعي الحقيبة يمسك بها شفيق مخافة أن يلقيها لمعي على الأرض بعنف:

- خذ يا لمعي.
- ما هذا يا أستاذ شفيق؟
- نقوط عرسك.
- هذا كثير.
- أنت عريس جديد.
- ليس بالضبط؛ فقد مضى أكثر من شهر على الزواج.
- أعذرني. كنت في الفيوم.

ينظر شفيق في أرجاء الشقة بينما يهم لمعي بالانصراف فيناديه:

- يا لمعي. لي عندك طلب.

- رهن أمرك.
- سأترك عندك الحقيبة لأني مسافر غداً، وقد أغيب كثيرا، وعندما أعود سوف أخذها منك.
- اطمئن ستكون في عيني.
- ضعها تحت الأريكة عندك، ولا يقربها أحد مهما كان أرجوك؛ بها أشياء مهمة. لله الأمر من قبل ومن بعد.

يضع لمعي الحقيبة تحت الأريكة بحذر كما أوصاه الأستاذ شفيق. تتابعه صباح في استغراب فتسأله:

- ما هذا يا لمعي؟
- حقيبة أستاذ شفيق. لقد أعطاني خمسة جنيهات نقوط العرس.
- ابن حلال ربنا يكرمه. ألم أقل لك سيفرجها الله علينا.
- لا تقربيها فهي ثقيلة، وأنت في بداية الحمل.
- حاضر.

في ذات الليلة يستيقظ لمعي وصباح على صوت طرق الباب يفتح لمعي الباب فإذا برجل مسن قصير القامة تميل بشرته للسمرة في حال مزرية له بدن نحيف يلفه جلباب رث تنبعث منه رائحة تراب الطريق المبللة بالعرق تظهر أصابع قدميه من نعليه تفصح عن طول سنين الشقاء تؤيدها خشونة راحتيه المتشققتين. تغلف عينيه الضيقتين الغائرتين مسحة حزن وندم:

- أين الباتعة؟
- الله يرحمها. أنا ابنها.

تهرب دمعة من عيني الرجل يمسحها بكفه.

- أنا السيد المناديلي. أبوك.

تعلو الدهشة وجه لمعي يعم الصمت لبرهة تنسال الدموع من عيني لمعي الذي يرتمي في حضنه يعلو نحيب الاثنين فتقطعه صباح:

- تفضل يا عمي. ادخل.

يدخل لمعي ممسكا بيد أبيه يجلسه على الكنبة بينما تعد صباح الطعام يغلف الحزن والشفقة وجه لمعي لما يرى من حال أبيه المتردية يطلب من صباح إعداد الحمام لوالده الذي يشعر بالحزن والندم الشديد لموت الباتعة وابنه مرسي، ثم تعود له البسمة إذ يرى لمعي الذي تركه صغيرا قد بلغ مبلغ الرجال وله زوجة. فقد تخلى عن أسرته ورحل يوم ضاقت به الحال وعجز عن توفير أبسط متطلبات المعيشة للباتعة وولديها. رحل دون أن يعرف أحد له طريق. يعرف منه لمعي أنه هام على

وجهه في أرض الله الواسعة من بحري لقبلي يعمل أي عمل يكفيه قوت يومه أقصى ما يصل إليه وجبة تقيم رمقه وتتحقق سعادته إن حصل بعدها على كوب شاي وسيجارة وكلما جن عليه الليل يلقي بجسده في أي مكان. ولما تعب الجسد ولم يعد قادرا على كسب القوت وضاقت عليه الحال قرر العودة لبيته وأولاده لينعم بالراحة في أيامه الأخيرة. وما أن انتهى من الحموم حتى وضعت صباح له الطعام فأكل بشهية بالغة ثم ابتسم ابتسامة رجاء قائلا:

- ياريت كوباية شاي وسيجارة يا ابني.

أخذ يشرب الشاي باستمتاع وينفث دخان السيجارة باسترخاء:

- نفسي أنام.

أعدت صباح له الكنبة فاستلقى متأوها:

- ضعوا عليَّ الغطاء. أشعر بالبرد.

انحنى لمعي يضع الغطاء على أبيه الذي يراه للمرة الأولى في حياته. يربت على كتفه، ثم قبل يده وجبهته.

- تصبح على خير يا أبي.
- وأنت من أهله يا ابني.

تنام صباح بجوار زوجها الذي أخذ ينظر لأبيه المستغرق في النوم فتلحظ بكاءه المكتوم؛ تربت على كتفه حتى لا يزعج أبيه النائم.

وما أن استقرت شمس الضحى في وجه السماء حتى استيقظت الحارة على عويل صباح؛ فيهرول الجيران عليها؛ فيعلم الجميع بموت السيد المناديلي والد لمعي الذي عاد بعد غياب كل تلك السنين يا مولاي كما خلقتني. يرافق فكري وعلام صاحبهما لمعي بعد أن انتهيا من اجراءات الدفن وبعد صلاة الظهر يلحق بهم كامل ليحضر الدفنة في العامود، وفي الليل فرشت الحارة بالكراسي وأقبل الجيران والأصدقاء. يتلقى لمعي وفكري وعلام العزاء من الرجال في حين تتلقى صباح ونعمة التعزية من النساء.

لم ينقض الشهر، وفي أحد الأيام قبيل الفجر. يشق السكون جلبة، وأصوات متداخلة، ووقع أقدام على درج السلم الخشبي. يتبعه طرق شديد على باب حجرة لمعي؛ يفتح الباب فزعاً فإذا بعدد غير قليل من الرجال يأمرهم أحدهم بتفتيش حجرة لمعي، ويمسك اثنين منهما الأستاذ شفيق والذي يردد مكررا:

- لله الأمر من قبل ومن بعد.
- من أنتم؟

- ستعرف حالا. فتشوا المكان.

يعثر أحدهم على الحقيبة:

- وجدنا هذه الحقيبة يا فندم.

يفتح الضابط الحقيبة عنوة فتجحظ عيناه لما يرى، وبنبرة غاضبة يوجه كلامه إلى لمعي

- حقيبة من هذه يا رجل؟

صباح في فزع:

- حقيبة الأستاذ شفيق.

ينظر الضابط إلى لمعي متفحصا إياه ينظر في عينيه بقوة:

- تعالى معنا.

تضرب صباح صدرها وبفزع تقول:

- إلى أين تأخذون زوجي؟
- نأخذ منه كلمتين ويعود بعد ساعتين.
- زوجي لم يفعل شيئاً (باكية)
- أحضروه.

يطرق الخريف ابواب المدينة الساحلية بقبضته الرمادية. الغيوم تلف الطرقات والبيوت. على المقهى يجلس فكري وعلام يحتسيان الشاي يلفهما الحزن والأسى لغياب لمعي وعدم استطاعة أي منهما الوصول إليه. يتحدثان:

- مرَّ شهر ويزيد، والشتاء على الأبواب ولا خبر عن لمعي؛ لم نترك مكانا إلا وسألنا فيه.
- وزوجته؟
- أعطيتها مبلغ المال الذي جمعناه، وهي الآن تبيع الخضرة على أول الحارة. ومن حين لآخر تأتيها الأسطى فوزية بزيارة، وتطمئن عليها.
- كان الله في عونها.
- اطمئن؛ سنراعيها حتى يعود لمعي بالسلامة.
- عرسك اقترب، وأنت ونعمة في حاجة لكل مليم.
- ما نعطيه لها، وما تفعله معها فوزية أيضاً يساعدها على المعايش.
- هل حددت موعد زفافك؟
- ليس بعد. عم محمود مازال محجوزا في مستشفي الصدر بكوم الشقافة، وعندما يتم الشفاء بإذن الله نقيم العرس.

- ربنا يشفيه، ويلم شملكم في خير.

في دكان الخواجة..

يجلس الخواجة على كرسيه. فيهيم في واحة الذكريات، يدق قلبه مع أول هبة نسيم تحمل عطر إيرين؛ لم ينطفئ وهج عشقه رغم طول الفراق، تسكره لوعة الاشتياق، تمطر سماؤه الآهات مشتاق يتعجل اللقاء. يحلق بجناحي الخيال مخترقا حدود الزمن؛ فيلتقي بـ"إيرين وچورچ "يصافحهما، ويتحدث إليهما بصوت داخلي ما لبث أن صار مسموعا لمن يجاوره؛ ينتبه فكري لصوت الخواجة:

- أتريد شيئا يا خواجة؟
- نعم فكري.
- سمعتك تتكلم.
- لا شيء فكري. اسمعني فكري. أنا مسافر اليونان، وسأترك مصر.
- لماذا يا خواجة؟

تزرف دمعة من عين أليكو يمسحها بمنديله:

- إيرين وچورچ وحشوني فكري؛ سأبيع كل شيء؛ لأعيش بجوارهما حتى ألقاهما.
- طولة العمر لك يا خواجة.
- سأكتب الدكان باسمك فكري؛ هدية زواجك، كي تتذكرني.
- لا يا خواجة. أنت في حاجة لكل مليم.
- لا يغلى عليك فكري. أنت مثل چورچ. كمان "إيرين "كان يحبك كتير. هتوحشني كتير فكري.

يندفع فكري وقد اغرورقت عيناه يرتمي في حضن أليكو، ويبكيان أحر البكاء:

يمسح أليكو دموعه يحاول الابتسام:

- مفروض أنت تكون مبسوط.
- لن أنساك أبدا يا خواجة.
- وأنا لا يمكن أنسى إسكندرية، وأهل إسكندرية فكري .

وفي يوم غائم يصحب فكري الخواجة للميناء، وعلى سطح المركب يقف أليكو يلوح بمنديله ويمسح به دموعه، وفكري على الرصيف يلوح بيده للخواجة يبدو عليه الحزن لفراقه ويمسح دمعاته. تتحرك الباخرة تمخر عباب البحر، في حين ظل أليكو على سطحها لا يحيد بعينيه عن بر الإسكندرية يملأ روحه الحزن والأسى؛ تنهمر الدموع من عينيه.

تمضي الأيام فتخيم السحب الداكنة فوق ساحل المدينة. بينما تتواتر الأحداث السياسية المشتعلة على الجمهورية الوليدة بعد أن استردت حقها المسلوب بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس شركة مساهمة مصرية؛ ليعود الحق لأصحابه مما أثار حفيظة الدول الاستعمارية الكبرى. يهل أكتوبر على البلاد بعد صيف مضطرب الأجواء. جاء رافعا سياطه القاسية ينهال بها على مدن قناة السويس يجلدها بلا رحمة؛ قوات غاشمة تجتاح بور سعيد. تملأ الراديو الأغاني الوطنية والأناشيد الحماسية وبينما يستمع فكري في دكانه للراديو لمتابعة أخر أخبار العدوان يستمع فكري للرئيس عبد الناصر في الراديو مثل الملايين من أبناء الشعب المصري والعربي وهو يقول: هاجمت بلادنا الطيبة قوى استعمارية غاشمة من الجو والبحر والبر طائراتها عكرت سماءنا، مراكبها دنست مياهنا، أقدامها لوثت ترابنا. جاءت هذه القوى تقتل أبناءنا الطيبين، وتسرق أقواتهم وتعتدى على حرياتهم جاءت لتبقى قاعدة للشر والاستعباد جاءت لتحتل بلادنا. سنقاوم في الجو والبر والبحر، ولن نكون وحدنا نواجه هذه الجيوش الثلاثة جيش بريطانيا وفرنسا واسرائيل، ولكن ستكون معنا كل الشعوب الحرة. بتلك الكلمات كان صوت الرئيس جمال عبد الناصر المدوي يملا كل بيت وكل قلب كان ينادي بالمقاومة والكفاح حتى آخر قطرة دم. وما أن انتهت الكلمة فإذا بصوت الفنان كارم محمود الذي ارتبط صوته بأول وأخر حب في حياته يصدح بحماس:

- إيدك في إيدى ياعم. ياعم.. نفدي الوطن بالدم.
- ونبقي وحدة ويد واحدة.. إيدك في إيدى ياعم. ياعم.
- إيدك في إيدى نار عالخاين الغدار.. بالاتحاد والهمة نطرد عدو الدار.

في شقة الخواجة باروخ مريوني..

تحتفل الإسكندرية لقدوم العام الجديد. وفي أحد الأيام يجلس الخواجة باروخ على الفوتيه بجوار المدفأة وعلى المنضدة أمامه جريدة مطوية. الخواجة "باروخ مريوني "رجل أربعيني أنيق الهيئة. ينزع "باروخ "نظارته الطبية بينما تدخل نعمة تحمل الصينية تتوقف مدام مارسيل عن عزف البيانو. مدام "مارسيل موسى شطاح "سيدة في نهاية الثلاثينيات يبدو عليها رغد العيش تتسم بملامح جميلة رشيقة الجسم أنيقة المظهر. تتوجه مارسيل حيث زوجها؛ تجلس إلى جواره تتناول فنجان الشاي من يد نعمة. تصب نعمة كنكة القهوة في الفنجان للخواجة تقدمه له؛ يبتسم الخواجة:

- ميرسي يا نعمة.

مدام مارسيل تنظر لنعمة قائلة في ود:

- يا نعمة.
- نعم يا مدام مارسيل.

- عارفة يا نعمة بيت الخواجة القديم.
- نعم. في العطارين. أعرفه.
- أنا طلبت من باروخ يتنازل عن ملكيته لك؛ تسكنين فيه مع أخويك وعمك بدل الحجرتين. بيت واسع فيه مخزن كبير افتحيه دكان يا نعمة. وهذه خمسون جنيها ابدأي بها تجارة.
- لم كل هذا يا مدام؟
- سنهاجر لـ "فرنسا "؛ لم يعد لنا مكان في مصر. إسكندرية هتوحشني وأنت أيضاً يا نعمة.
- كثر خيرك يا مدام.
- دي هدية جوازك مني ومن باروخ لك أنت وفكري.
- شكراً يا مدام.
- كيف حال عمك محمود؟
- ما زال في مستشفي الصدر لم يخرج.
- ربنا يشفيه، ويفرح بزواجك أنت و فكري.
- تسلمي يا مدام.

في اليوم التالي بعد أن انتهى باروخ ومارسيل من إجراءات مصلحة الجوازات والجنسية يذهبان معا لمقابر اليهود في الأزاريطة؛ يودعون أحباءهم وذويهم الذين تضم رفاتهم تلك المقابر. تمسح مارسيل دموعها؛ تحاول أن تبدو متماسكة أمام زوجها:

- لا تبك باروخ هذا نصيب.
- الفراق صعب يا مارسيل.
- ليس بأيدينا. قدر ومكتوب علينا باروخ.

يجفف باروخ دموعه تتأبط مارسيل ذراعه يغادرون المقابر. ينطلق باروخ بسيارته على الكورنيش يطوف الشوارع ليودع الإسكندرية التي شهدت مولده وذكرياته بكل ما فيها من أفراح وأتراح، وحين حل المساء يرتدي باروخ بدلة أنيقة. بينما مارسيل في فستان سواريه على أجمل ما يكون؛ يصطحبها إلى كازينو "الأجلون "للعشاء؛ ليودعا الإسكندرية في تلك الليلة قبل مغادرة مصر نهائيا، والهجرة إلى فرنسا. في اليوم التالي تحلق النوارس في ذعر؛ لتنبئ بثورة الأمطار التي تجبرها على الانسحاب لتختبئ في أعشاشها المجهولة تاركة المدينة وحدها تواجه هطول الأمطار.

على أول الحارة تجلس صباح تبيع الخضرة. يأتي إليها فكري:

- كيف حالك يا صباح؟
- نحمد الله يا سي فكري.

- ألم تصلك أخبار عن لمعي؟
- أنا زرت مقام سيدي العدوي، وأشعلت له دستة شمع؛ وكنست سيدي مفرح على من ظلمه، وتسبب في أذاه.
- ربنا يرده لك بالسلامة. هذا مبلغ بسيط.
- كثر خيركم. ما أكسبه من بيع الخضرة يكفيني.
- نواة تسند الزير يا صباح.
- ما يقلقني أن موعد الولادة يقترب، وحتى الآن لا حس ولا خبر.
- ربنا يرجعه لك بالسلامة.
- ما أخبار نعمة؟ ولماذا تؤجلان الزفاف؟
- عم محمود ما زال في المستشفي.
- ربنا يشفيه. وأين نعمة الآن؟
- انتقلت للبيت الجديد في العطارين، وفتحت دكانا لبيع الطيور هي وأخواها عطية وصلاح وصارت معروفة بين الناس باسم نعمة مريوني؛ لأن سكان الحي يعرفون البيت باسم بيت مريوني، وجميعنا ننتظر خروج عم محمود كي يتم الزفاف.
- ربنا يخرجه بالسلامة، ويقرب البعيد.

كاد الصيف أن ينتهي، والحال كما هي فكري في دكانه. تمر نعمة عليه كل صباح تطمئن عليه، وتعود تباشر تجارتها مع أخويها حتى كان أمر الله المحتوم. ارتاح الجسد الذي طالما قاسى في الحياة. مات عم محمود؛ يخيم الحزن على نعمة وأخويها.

في السرادق ينتهي المقرئ من تلاوة القرآن؛ ينفض العزاء. يجلس علام إلى جوار فكري:

- شد حيلك يا فكري.
- عظم الله أجرك يا علام.
- طبعاً ستؤجل الزواج؟
- طبعاً.
- كان الله في عونك يا صاحبي.
- الحمد لله.

*****

في شارع البورصة القديمة وأمام الأوتيل تقف سيارة صبري الذي ينزل مسرعا ليأخذ بيد علام:

- مع السلامة يا عم علام. لا تقلق سأنهي كل شيء في أسرع وقت.

- مع السلامة يا صبري يا ابني.

يدخل علام الأوتيل وفي حجرته يرتاح قليلا وعند العصر خرج للشارع يشده الحنين لشوارع الإسكندرية وأحيائها العريقة يسير إلى ميدان المنشية يشتري الجريدة كما كان يفعل في الماضي، ومن شارع صلاح سالم تأخذه أقدامه إلى حي العطارين، وفي شارع صلاح الدين وبينما يسير في الشارع إذ فجأة تخترق مسامعه صوت طشطشة زيت القلي؛ تنساب لفتحات أنفه رائحة الفلافل المثيرة للشهية؛ يتبعها فيرى الصنايعي واقفا أمام نصبة الفلافل يمد يده في وعاء عجينة الفلافل الفستقية يبططها بأصابعه المبللة على راحته؛ يلقي بها في طاسة القلي فيسمع طشطشة الزيت؛ يقلبها بالسيخ الحديدي، ثم يرفعها بالمقلاة الشبكية؛ فتنبعث رائحتها التي لا تقاوم. يلقي بها إلى المصفاة لتتعالى أصوات الزبائن يمدون أيديهم بالنقود يحددون ما يرغبونه من حبات الفلافل المحمرة الساخنة، يقف علام وقد أخرج من جيبه جنيها يريد واحدة محشية ليأكلها؛ فقد أسرت رائحة الفلافل شهيته، وقرر أن يأكلها وليكن ما يكون، وما أن ناوله الصنايعي حبة الفلافل المحشية في قرطاس ورقي حتى مد علام يده والتهمها بدون خبز؛ تسري في روحه سعادة غامرة، ثم يجلس على كرسي المقهى في ناصية الشارع؛ يأتيه القهوجي؛ فيطلب كوبا من الشاي بالنعناع يمسك بالجريدة يفتحها؛ يتصفح الصفحة الأولى والتي يعتليها مانشيت زيارة رئيس الوزراء لمدينة العلمين الجديدة والتي جاء متن الخبر تحت المانشيت مكتوب فيه: أوضح رئيس الوزراء أن هناك هدفاً آخر من إنشاء مدينة العلمين الجديدة يتمثل في إقامة مدينة متكاملة قائمة على استيعاب الزيادة السكانية المتوقعة، ومن المتوقع أن تستوعب هذه المدينة نحو أربعة ملايين نسمة، وهو ما يؤهلها لأن تصبح واحدة من كبريات المدن مع مرور الوقت، كما أكد أن الحكومة تسابق الزمن وتتحدى نفسها؛ من أجل إنجاز أهداف التنمية بالمدينة في أسرع وقت ممكن.

يقلب علام الجريدة فإذا بمقال في الصفحة الأخيرة يلفته؛ فيقرأ فيه للأستاذ عباس حسين: الإسكندرية الأميرة والعاهرة. هذه المدينة لم تترك لنا سوى الندم. إنها مدينة لا تملك إلا أن تقع في شباكها راضيا؛ كما وصفها بعض المبدعين الذين مروا عليها وعاشوا فيها وكتبوا عنها المدينة التي ولدت من هوى الإسكندر، وقال عنها كفافيس: وقل وداعا للإسكندرية التي نفقدها وفي عام 1941 م وقت كان بالإسكندرية خمسة أعراق مختلفة يتحدثون خمس لغات، وأكثر من عشر ملل دينية، وخمسة أساطيل بحرية تتحرك خلف بوابة الميناء. الإسكندرية الإسكندر الأكبر، والبطالمة، وعظماء الفلاسفة، والعلماء، ومكتبتها التاريخية، ومنارتها التي كانت أحد عجائب الدنيا السبع وكليوباترا، وتاريخ مجيد لم تعرفه مدن أخرى. الإسكندرية البيئة الإبداعية الخصبة: كفافيس، وسيد درويش، وسلامه حجازي، وبيرم التونسي، وتوفيق الحكيم، ومحمد جبريل، وادوار خراط، وإبراهيم عبد المجيد، وسعيد سالم، ومحمود سعيد، وبيكار،

وسيف وانلي. الإسكندرية التي رثاها الشاعر الإيطالي جوزيبى عند فراقها، وكتب لها لورانس داريل رباعيته المشهورة. كما كتب عنها أناتول فرانس، وفورستر وآخرون. الإسكندرية بلد المهجر والوطن الثاني لعشرات الآلاف من اليونانيين الذين وفدوا إليها عندما كانت أثينا بلده فقيرة علاوة على عشرات الجاليات من كل أنحاء العالم. الإسكندرية المجد، والتاريخ، والفنون، والعلوم، والآداب هي الإسكندرية الجريحة الآن التي يغتالون تراثها ويغيرون من طوبوغرافيتها، ويطمسون ملامحها، ويجيرون على بحرها، ويحجبونه بالأسوار، وينتهكون ملامحها الأثرية، وبقى أن يغيروا اسمها؛ لم تحظ مدينة في العالم بأسره مثل الاسكندرية بكل هذا الكم من الحقد والكراهية على تاريخها ومجدها وحضارتها وعالميتها. تكالب المفسدون والجاهلون والمرتشون وأصحاب حقائب الأموال المغسولة المعاد تدويرها على جسد المدينة نهشا وتدميرا فاستبدلوا الجمال بالقبح ودمروا التراث ليقيموا أبراجهم الإسمنتية القميئة مكانها. محيت مدينة الثقافة والفنون والتاريخ وحل محلها ثقافة الاسمنت والكافيهات والمطاعم وأختفي عقل المدينة ووجدانها وبرز كرشها من التخمة وتفتحت شهيتها للقبح والجشع والغث من الأمور خذلها الجميع وتواروا بل وهربوا عقوقا وجحودا، وبقيت القلة من الأصوات الصارخة دفاعا عن الجمال والأصالة، ولم يلبث أن خفتت تلك الأصوات ثم تلاشت، وضاعت، وبقيت المدينة وحدها تدافع عن شرفها فتنهال عليها المعاول بلا رحمة لتمحوها عن الوجود. إذا قادتك قدماك إلى السير في طرقات المدينة ذات مساء شتوي بارد فسيصل إليك أنين المدينة المتعبة والمرهقة وهى تلعق جراحها كمدا وحسرة فلا تشاركها البكاء بل أطلق من أجلها صرخة احتجاج لعل وعسى.

يتحسر علام على ما آلت إليه حال المدينة الكوزموبوليتانية فيتذكر بعضا من شعر كتبه الروائي إبراهيم عبد المجيد على لسان شاعر في رواية طيور العنبر يقول فيها:

... هنا. هنا في الإسكندريّة

الّتي ينزل عليها المطر يغسلها

لترى السّماء وجهها في الأرض.

أيّ مدينتي العبقريّة

مدينة النّزق والجنون والاستشهاد

كيف دخلتك الخيول العجوز

محمَّلة بكلّ هذا الغبار والتّراب

كيف فتحت أبوابك للبرابرة...

لقد صارت مارية في حال متردية؛ تفقد هويتها وتراثها شيئا فشيئا، ثم ينظر إلى برج سكني شاهق الارتفاع حديث البناء في ذات المكان الذي كان فيه بيت نعمة:

- هنا كان بيت نعمة وفي هذه الجهة كان دكانها. ماذا حدث فيك يا عروس البحر؟ (محدثا نفسه)

*****

في دكان نعمة وقد مرت الشهور على موت عمها..

أم فكري في حالة صحية متردية بالكاد تتكلم؛ فقد اشتدت عليها العلة وأثقلها المرض تتحدث مع نعمة التي مازالت ترتدي ملابس الحداد على عمها محمود:

- نريد أن نقرب البعيد؛ نفسي أفرح بكما يا نعمة قبل ما أموت.
- بعيد الشر عليكي يا خالتي. ليس قبل مرور عام. الأصول كده.
- كما تحبين يا ابنتي. ربنا يجعلها آخر الأحزان.

تمضي عجلة الأيام متثائبة لا شيء يفرح القلوب التي خيمت عليها الأحزان.

على المقهى..

يجلس الأصدقاء الثلاثة بينما فكري واجما غارقا في الصمت شارد الفكر. يقطع الصمت الأستاذ كامل متسائلا:

- ألا من جديد عن لمعي يا جماعة؟

يبادره علام مجيبا:

- لا جديد يا أستاذ كامل. ولا نعرف له طريق؛ وكلما سألنا لا يجيبنا أحد.، وزوجته طوال النهار في الحارة تبيع الخضرة وابنها يحبو بجوارها.
- كان الله في عونهما.

فكري بنبرة حزينة:

- وعون المسكين لمعي. لم يشاهد ابنه الذي جاء للدنيا في غياب أبيه.
- ربنا يرجعه بالسلامة. لو تكرمت يا فكري توصل هذا المبلغ البسيط لزوجة لمعي.
- تسلم وتعيش يا أستاذ كامل.

يسأل علام عن أم فكري:

- كيف حال الوالدة الآن يا فكري؟

يبدو الأسى على وجه فكري وبصوت خفيض حزين يجيب:

- يتثاقل عليها المرض ولا رجاء من شفاء قريب
- لهذه الدرجة؟
- الطبيب في المستشفي أمر لها بالخروج قائلاً: عليها أن تستريح في بيتها أفضل.
- مر أكثر من عام على وفاة عم محمود لماذا لم تتزوج؟
- وكيف أتزوج وأمي في هذه الحال وأيضاً نعمة تستحي أن نتزوج قبل أن يتم الله الشفاء لأمي
- بنت أصول والله..

يطوي الأستاذ كامل الجريدة فيسأله علام:

- أين وصل موضوع سوريا؟
- يريدون إلغاء الوحدة مع مصر
- وما رأي الرئيس؟
- يبذل النفس والنفيس من أجل الوحدة؛ يحرص عليها بين البلدان العربية.

يتلفت فكري حوله بعينين زائغتين يبدو عليه الاضطراب فيهمس إليهما:

- اخفضوا صوتكم يا جماعة للحيطان آذان.

في بيت الأسطى فوزية العالمة..

تجلس صباح على الكنبة بجوار الأسطى فوزية بينما يلهو السيد على الأرض تحرسه عين أمه.

- كيف حالك يا صباح؟ كبر السيد ما شاء الله.
- تعيشي يا خالتي.
- خذي يا صباح.
- مستورة الحمد لله.
- هو أنا غريبة. أنت ابنتي يا صباح.
- سي فكري وسي علام لا يتركوني أبدا وأبيع الخضرة ومستورة الحمد لله.
- خذي هذا المبلغ للسيد. لا تردي يدي.
- تسلمي لي يا خالتي.

فجأة يصرخ السيد، وتنهمر دموعه باكيا. تفشل كل محاولات أمه في إسكاته. تنادي الأسطى فوزية:

- يا زيزي بت يا زيزي. هاتي ورقة وإبرة وعلبة الكبريت.

تمسك فوزية بالورقة تقطعها على شكل عروسة:

- ماذا تفعلي يا أبلتي؟
- الواد محسود يا صباح.

تنغز فوزية العروسة الورقية بالإبرة وهي تردد قائلة:

- من عيني، ومن عين أمك، وعين البت زيزي، وعين كل من شافك ولا صلى على النبي.

تضع فوزية العروسة الورقية فوق البخور فتحرقها النار، وتتثائب بشدة تضع كفها على فمها:

- ألم أقل لك. الولد محسود.

ينظر الصغير إلى الورقة وهي تحترق فيصمت. تبلل فوزية أصبعها بلسانها. تفرك رماد الورقة المحترقة تمسح جبهته بالرماد. يهدأ الصغير ينام في حجر أمه؛ تشعر صباح بالاطمئنان على صغيرها التي لا تتحمل عليه شيئا:

- تسلمي يا خالتي.
- طاهرتي الواد يا بت؟
- عندما يخرج أبوه.
- سنطاهر السيد عندي، وسأقيم له حفل طهور تحكي به كرموز كلها.

ولم يمر الأسبوع حتى تمت طهارة السيد عند فوزية والتي أصرت على إقامة حفل طهور رغم معارضة صباح لغياب والده. يجلس فكري في عربة الحنطور المزينة يضع السيد على حجره، وقد ألبسوه قفطانا أبيض مرسوم على ظهره" خميسة" مطرزة بالخيط الأزرق. تسير صباح وفوزية والمعازيم بجوار الحنطور يصفقن، و أمام الحنطور يرقص "أبو الريش" رجل يعتمر في رأسه الريش يهز يديه بشخاليل، وعلى خصره حزام من الجلد تتدلى منه شرائط ملونة. يحيط به رجال في جلاليب بيضاء يتوشحن شرائط خضراء على صدورهم. يضربن الدفوف والمزاهر، وكلما مر الحنطور بحارة أو شارع انطلقت زغاريد النساء من البلكونات والشبابيك. وأمام بيت الأسطى فوزية تعزف فرقة حسب الله يقودها "حودة كرامة ". ينهال عليها النقوط من المعازيم والحبايب تحية للمطاهر، وصباح تنظر لابنها مبتسمة تنسال الدموع من عينيها.

في منزل فكري..

يجلس فكري بجوار أمه الممددة على السرير يتذكر ابتسامتها له عندما يعود من العمل فيسعد أيما سعادة كلما اشتم رائحة صينية السردين الذي يحبه حد العشق تنزل من عينيه دمعة يمسحها يؤلمه ما بلغه المرض من أمه فتفتح عينيها وبصوت واهن:

- أود أن أفرح بك يا فكري قبل أن أموت.

- بعيد الشر عنك يا ست الحبايب.
- طالت خطبتكما أكثر من اللازم.
- ربنا يسهل عن قريب يا أمي.
- لا تؤجلا عرسكما أكثر من ذلك يا فكري.
- المهم صحتك يا أم فكري.
- ضروري أكلم نعمة غداً، ونتمم فرحكم في أسرع وقت.
- هيا يا ست الكل؛ خذي من يدي الدواء.

تنام أم فكري يقبل فكري جبهتها، ويغلق الباب بهدوء. وفي اليوم التالي يدخل فكري على أمه ليوقظها كي تفطر وتتناول الدواء فإذا بالروح قد فارقت الجسد الذي عذبه المرض.

سرادق عزاء أم فكري..

يجلس فكري في سرادق العزاء وقد تقرحت عيناه حزنا لفراق أمه؛ فهطول الدمع يسفر عما تحمله النفس من ألام الحزن و الفراق، كما تفرغ حقائب الشوق التي تدخرها الذاكرة للفقيد. ينفض العزاء؛ وتنطفئ الأنوار، وبينما يجد عمال الفراشة في عملهم يقف علام وكامل بجوار فكري:

- ننزل الدنيا ثم نرحل، وهكذا الدنيا نزول وارتحال. البقاء لله.
- شكر الله سعيك يا أستاذ كامل.
- شد حيلك يا فكري.
- عظم الله أجرك يا علام.
- قلبي معك يا صاحبي.
- على الله يا علام.

صباح اليوم التالي "صُبحة الميت "تقبل النساء يتوشحن بالسواد وصباح ونعمة يفرشان الحصير بعد تنظيف المكان أمام منزل أم فكري وبجوار مدخل البيت تجلس صباح أمام وابور الجاز تغلي الينسون للشيخة فاطمة حتى ينجلي صوتها في تلاوة القرآن وقد توسطت النساء ترتكن إلى مسند وضع خصيصا لها يغطي عينيها نظارة سوداء تجلس بجوارها نعمة التي تتلقى العزاء من نسوة الحارة باكية على المرحومة أم فكري وما أن تنتهي الشيخة فاطمة من تلاوة الحزب حتى يعلو صويت النسوة يتبع كلمات أم جمعة المعددة ليبدين مدى حزنهن على الفقيدة التي عاشرتهن لسنوات فكانت خير جارة لهن وفي أيديهن المناديل البيضاء تشلشلن بها، وتبكين "أم فكري "وفي خلال ساعتين تنتهي الصُبحة تعزي النساء "نعمة "وتنصرفن لبيوتهن. يقبل فكري على نعمة بينما تلملم صباح الحصير:

- كتر خيرك يا نعمة.

- توكل على الله شوف أنت أكل عيشك، وأنا وصباح سننظم كل شيء في البيت.

تنتهي نعمة وصباح من كل شيء. تحمل صباح صغيرها:

- أتريدين شيئا يا نعمة؟
- سلمت يا صباح. ألا من جديد عن لمعي؟
- ادع لي يا نعمة.
- ربنا يقرب البعيد، ولا يحرمك من رجل بيتك.
- أفوتك بالعافية.
- مع السلامة يا صباح.

وفي يوم الخميس الأول بعد وفاة أم فكري تعد نعمة "القرص "ترافقها صباح لمقابر العامود لزيارة قبر أم فكري.

وتدور عجلة الزمن، وذات يوم بينما صباح تفترش الرصيف على أول الحارة في اتجاه الشارع العمومي. تبيع الخضرة وفي يدها سكين تقطع به أربطة الخضرة. يلهو الصغير بجوارها تنتفض لتلحق به فلا تصدمه سيارة، فجأة تقبل سيارة شرطة المرافق. يندفع منها شرطي ضخم البنيان فظ القول غليظ القلب. يركل فرشها؛ تتبعثر بضاعتها الهزيلة على التراب. تلطم خديها تبكي منهارة:

- منك لله يا بعيد. حسبي الله ونعم الوكيل فيك يا مفتري.

يدفعها الشرطي بعنف؛ يسقط من على كتفها الصغير؛ ترتطم رأسه بالأرض فتشجها؛ يندفع منها الدم فلا يتحرك؛ يجن جنونها ظنا منها أن الصغير قد مات. تمسك بالسكين تندفع في فزع إلى الشرطي الذي يعطيها ظهره غير عابئ بما فعل في الأم والصغير. لتضع السكين في رقبته فيخر صريعا من وقته. يهرع الضابط والعساكر يلقون القبض عليها. تتجمع الناس يسود الهرج. وفي خلال الساعة كانت الإسعاف قد وصلت تعالج الصغير الذي أفاق، وتحمل جثة الشرطي الصريع، وصباح منهارة تبكي، وتلطم؛ تصطحبها الشرطة للقسم...

ولم ينقض الشهر حتى جاء علام وكامل إلى دكان فكري:

- ماذا فعلت يا فكري؟
- الأسطى فوزية كانت تريد الطفل لكن نعمة أصرت أن تأخذه لتربيه.
- وعلام انتهى الأمر؟
- زرنا صباح في السجن، وهي بنفسها طلبت من الأسطى فوزية أن تترك السيد لنعمة.

الأستاذ كامل متأثرا، وبصوت حزين:

- مسكين هذا الصغير لا أم ولا أب.

فكري بنبرة كلها حماس:

- وأنا رحت فين يا أستاذ كامل؟ أنا أبوه ونعمة ستكون أمه.

علام يربت على كتف فكري:

- كتر خيرك والله يا فكري، وأنا وكامل تحت أمرك في أي شيء.
- مستورة الحمد لله يا جماعة.

*****

وعند اقتراب الغروب لم يعد علام إلى الأوتيل. جلس على الكورنيش قريبا من المرسي أبي العباس، يشعر أن كل شيء قد ضاع منه بفقدان رفاق عمره في الإسكندرية. مر الوقت وازدادت برودة الجو؛ يتناثر رذاذ البحر من شدة الموج؛ فقام، واتجه صوب جامع أبي العباس، خلع حذاءه، حمله، وسار بترو داخل المسجد يستنطق جدرانه، يصلي ركعتين ثم يركن ظهره إلى الجدار تسيل عيناه على حيطان الجامع. يمر الوقت ولا يشعر بمروره. فجأة سمع المؤذن يؤذن لصلاة العشاء فأداها في جماعة مع المصلين وما أن انتهت الصلاة خرج من الجامع تلح عليه رغبة في ركوب حنطور ففعل، وفي طريق الكورنيش يعلو صوت آلات التنبيه من مجموعة سيارات تتقدمهم سيارة مكشوفة يزينها الورد. يجلس فيها عروسان. تنبعث الزغاريد من السيارات المصاحبة لسيارتهما. يبتسم علام لمشهد العروسين والزفة، وعند الأوتيل:

- على إيدك يا أسطى.

يصعد علام لحجرته بعد العشاء في مطعم الأوتيل يجتر الذكريات. يكتشف علام أنه نسى أچندته في درج مكتبه في أمريكا ينتابه الضيق الذي سرعان مازال باتصاله مع أحد حفيديه وقد طلب منه عبر الإنترنت أن يذهب للبيت في أقرب وقت ممكن ليحضرها من درج مكتبه، وإرسالها له في طرد بالبريد الجوي على مكتب الأستاذ صبري كامل المحامي احتسابا لانتقاله في أي وقت قريب. وما أن اطمأن علام حتى جلس على الفوتيه يتابع التليفزيون. فتذكر أن يتصل على صبري لينبهه أن هناك طرد قد يصل لمكتبه خلال أيام:

- لقد أعطيت حفيدي عنوان مكتبك ليرسل لي طرد مهم. أچندة تهمني جدا.
- هل في تلك الأچندة شيء مهم لهذه الدرجة؟
- في أول أيام غربتي ظللت أسهر الليل كله وحيدا، وأحيانا أجالس الكتب؛ أنصت لحديثها، وقد ترافقنا الذكريات في أحايين كثيرة. كنت في بادئ الأمر أقرأ من أجل أن أنام، ثم صرت أقرأ بشيء من الاهتمام والشغف، حتى

قررت أن أسجل حديث ذكرياتي في تلك الأجندة. أقبلت عليها بنهم شديد وشراهة قصوى.

- أكيد تدوين الذكريات شيء ممتع؟
- بالفعل. إن تدوين الذكريات أخذني إلى عالم جديد كنت أجهله قبل ذلك، ولم يخطر لي ببال أنه طوق النجاة لي من لجج الوحدة والغربة الهادرة؛ فتفجرت المشاعر المزدحمة في نفسي تدفئ أوصالي المتجمدة في ليالي الغربة الباردة. وكانت لي المؤنس كلما شعرت بقسوة الوحدة أقبل عليها أقلب صفحاتها أقرأ ما دونته فيها عن حياتي في الإسكندرية قبل أن أرحل عنها.
- كن مطمئنا يا عم علام؛ لن يطلع أحد على ما فيها.
- أبدا يا ولدي ليس بها أسرار. فقط هي ذكرياتي مع رفاق عمري، وقد عاهدت نفسي أن أكتب الفصل الأخير في الإسكندرية إن قدر الله لي العودة وقد حقق الله رجائي.
- لتكتب الفصل الأخير.
- إن شاء الله.
- فور وصولها سأحضرها لك يا عمي.
- أشكرك يا ولدي.

يجلس علام مسترخيا فيرفع الستار عن مسرح ذكرياته التي بدت شاخصة أمامه كما اعتاد في غربته يتذكر الأحباب رفاق العمر.

*****

في العطارين..

تجلس نعمة وأخويها في المساء يحتسيان الشاي:

- هل ستسافر غدا يا عطية؟
- لابد أن أسافر هذه المرة بنفسي. لدينا أمور يجب انهاؤها مع التجار.
- ألا تحتاج صلاح معك؟
- لا داعي سيبقى صلاح معك في الدكان وأنا أسافر.
- ترجع بالسلامة.
- طالت خطبتك بفكري ألا تتزوجا كي ينفك الكرب عنا
- أمه ماتت ولن يصح إتمام الزواج قبل مرور العام؛ الناس تأكل وجوهنا
- ربنا يسعدك يا نعمة
- ما بك يا صلاح؟
- صلاح يحب
- يحب من؟

- ابنة المعلم صاحب المقهى التي كان يعمل فيها وقد اتفقا على الزواج في الوقت المناسب
- إن شاء الله يا صلاح. لا تحمل الهم، وأنت يا عطية ألا تفكر في الزواج؟
- ليس قبل أن أطمئن عليك مع فكري.
- كله بأمر الله.

يحول صلاح دفة الكلام كعادته دون أن يعمل حسابا لوقع كلماته على من يسمعها:

- مفروض يا نعمة لا تذهبي عند فكري كل يوم.
- أتغير عليَّ يا صلاح. إنه خطيبي، ولولا ما حدث معي ومعه كنا زوجين منذ زمن. أنا أذهب كل يوم أطمئن على أحواله. ما بيني وبين فكري لا يستطيع أن يقدره أحد.

يبدو على نعمة التأثر بكلمات صلاح.يتأثر عطية بكلمات أخته يقدر تضحياتها من أجل سعادة غيرها:

- ربنا يلم شملكم يا نعمة.
- تسلم لي يا عطية.

يشعر صلاح بالخجل مما بدر منه:

- ربنا يسعدك يا نعمة.

تحاول نعمة إخفاء حزنها تمسك دموعها حرصا على أخويها:

- ونفرح بك يا صلاح.ألن تقول لي ما اسم عروستك؟
- اسم من؟
- بنت المعلم.

عطية ضاحكا يسرع في الإجابة:

- وردة يا نعمة. اسمها وردة.
- اسكت يا عطية.

تبتسم نعمة يملأ وجهها الفرح بأخويها اللذين صارا شبابا ملء العين:

- يارب أفرح بكما وأراكما عرسانا.
- أنت أولا يا ست أخواتها.

على المقهى:

يلتقي علام بفكري الذي يحتسي الشاي وحده:

- اشرب الشاي بسرعة؛ ورانا مشوار.

- خير؟
- عزاء أخو الأستاذ كامل؛ استشهد في حرب اليمن.
- الله يرحمه.

لا تتوقف عقارب الزمن عن الدوران تحتدم الاضطرابات السياسية في المنطقة وتتسارع وتيرة التصريحات تنشر الجرائد احتفاء صور احتفاء الرئيس عبد الناصر وجموع الشعب بإنتاج مصر للصاروخين "القاهر والظافر" كما أعلنت مجلة المصور على غلافها أن سرا يذاع لأول مرة - سفينة الفضاء المصرية - وتعلو نبرة الحرب لتخيم على مصر والشرق الأوسط. وسط هذه الأخبار المبهجة يتم الاتفاق أخيرا على إتمام زواج نعمة من فكري.

وذات يوم معلوم في العطارين..

يعد عطية نفسه للسفر تجلس معه نعمة:

- هل تستطيع العودة قبل غدا قبل العصر؟
- لا تقلقي يا نعمة غدا قبل العصر أكون في الإسكندرية إن شاء الله.
- المأذون سيأتي المغرب فلا تتأخر. فأنت وكيل العروسة.
- ربنا يتمم بخير يا نعمة.
- كنت أود أن أزوجك أنت وصلاح وأطمئن عليكما ثم أتزوج بعدها
- وما ذنبك أنت وفكري معنا لقد مضت السنوات وأنتما لم تتزوجا بعد لقد آن الأوان يا نعمة أن يجمعكما بيت واحد صبرتما كثيراً
- المهم انتبه لنفسك أثناء سفرك
- على الله يا عروسة لا تخافي
- أين صلاح؟
- على المقهى.. ربما يلتقي حبيبة قلبه "وردة "

في دكان فكري..

يقبل علام وما أن جلس على الكرسي حتي بادره فكري:

- هل أكدت على المأذون يا علام؟
- سيأتي به الأستاذ كامل غدا بعد صلاة المغرب.
- أشعر بالقلق
- لا تخف. أعددنا كل شيء. مبروك يا عريس. أخيرا ستتزوج.
- الله يبارك فيك يا علام.

يوم الفرح أمام بيت نعمة في العطارين..

تتلألأ الأنوار. تصدح الأغاني من مكبر الصوت. تنبعث زغاريد النساء في البيت. فرقة حودة كرامة في الشارع تعزف بآلات فرقة حسب الله للمعازيم ينهال عليهم النقوط.

- عطية تأخر يا صلاح. أنا قلبي واكلني عليه.
- الغائب حجته معه يا عروسة.

فجأة يعم الصمت في الشارع وتسكت الموسيقى فإذا بعسكري البوليس يتحدث مع الجالسين في العرس:

- هذا منزل عطية عبد المقصود؟
- نعم يا شاويش.. خير إن شاء الله
- هل يوجد أحد من أهله؟

من في الشارع ينادون:

- يا صلاح. يا صلاح

يهرع صلاح مسرعا إلى الشرطي:

- نعم يا شاويش
- أتعرف المذكور عطية عبد المقصود؟
- أنا أخوه

تجري نعمة إلى الشارع تسرع دقات قلبها.

- تعرض أخوك لحادث وهو الآن في مستشفي كفر الزيات العام.

يرتعد جسدها، وتشهق شهقة ألم وانفجرت باكية وجسدها كله يضطرب ويهتز كعود زرع نحيل في مهب الريح. أسندت رأسها إلى مرفقيها فسقطت الملاءة التي كانت تلتف بها، يعلو صراخ نعمة وتنطفئ الأضواء وينقلب الفرح غما وهما.

في مستشفي كفر الزيات العام..

في قسم الحوادث تهرول نعمة في الطرقة الممتدة باكية يحترق كبدها أسى وحسرة على أخيها بجوارها فكري وصلاح يسألون في لهفة واضطراب عن اسم عطية عبد المقصود حتي أخذهم تمرجي قسم الحوادث إلى عطية الممدد على السرير في غيبوبة وما أن رأوا ما حدث لعطية تنهار نعمة بكاء بينما صلاح لا يتمالك نفسه حزنا على أخيه الذي فقد ساقيه يواسيهما فكري الذي ينتابه الحزن الشديد لما أصاب عطية، وعند الطبيب المسئول:

- ماذا حدث يا دكتور؟

- اضطررنا لبتر قدميه.
- أخويا. أخويا.
- اهدأي يا نعمة. نطمئن عليه أولا.
- نريد نقله للإسكندرية يا فكري.
- حاضر يا صلاح.. تعال معي يا علام.
- لا يمكن قبل شهر على الأقل.. كما أنه سيحتاج وقت طويل حتى يتماثل للشفاء ويتعافي ويتأقلم مع وضعه الجديد.
- شكراً يا دكتور.

تخيم سحب الأحزان على الجميع؛ عطية غير القادر على الحركة تساعده نعمة في كل تحركاته داخل البيت الذي لا يغادره أبدا. ترعى نعمة أخويها وفكري وتباشر الدكان دون كلل أو ملل. تمضي الأيام والليالي، والحال كما هي لم يجد جديد؛ لا تقبل نعمة الزواج حتى تستطيع التفرغ لأخيها القعيد الذي لا يستطيع دخول الحمام دون مساعدة، وفكري يصبر مع نعمة لا يستطيع أن يطلب منها الزواج.

وفي حديقة الشلالات يخرج البط من بيته الذي يتوسط البحيرة فوق ربوة خضراء تطل على البحيرة التي يتوسطها بيت للطيور التي تسبح فيها يجلس صلاح بجوار وردة يبدو عليهما الحزن يتحدثان:

- حاولت مع أبيك كثيرا ولكنه رافض وما زال مصرا على أن يزوجك من المعلم عاشور تاجر القطن.
- وما الحل يا صلاح؟
- سأحاول ثانية معه...

*****

في الصباح بعدما انتهى علام من مكالمة ابنته وأحفاده عبر الانترنت فصباح الإسكندرية مساء أمريكي، وبينما يجلس علام في شرفة الأوتيل يتمتع بأجواء الإسكندرية الشتوية فإذا بهاتفه يرن:

- أيوة يا صبري. .
- تمام الحمد لله. .
- طبعا. في انتظارك.

وقت العصر وبعد أن انهى علام غداءه يصل صبري؛ يجلسان في صالة الأوتيل يحتسيان الشاي:

- ماذا فعلت؟
- الشقة تحتاج إلى بياض وإصلاحات عديدة.
- لا. يكفي التنظيف حرصا على الكتب وخلافه. وعجل بفتح المكتبة.

- العمال يبذلون قصارى جهدهم. كن مطمئنا.
- أشكرك يا صبري. لا تنس أن ينتبه الجميع للبرواز
- من عينيا لا تقلق. أستأذنك يا عم علام.
- تفضل يا ولدي.

لم يمض أكثر من أسبوع فإذا بصبري يتصل بعلام يخبره بوصول الطرد من أمريكا؛ يبتهج علام أيما ابتهاج فبين دفتي تلك الأچندة ذكريات العمر وحكاياته مع رفاق عمره ويستطيع الآن أن يدون الفصل الأخير الذي طالما حلم بكتابته في غربته عندما تطأ أقدامه الإسكندرية فقد حقق الله رجاءه وامتد به العمر واعيا ليكتب الفصل الأخير وفي الأوتيل:

- أشكرك يا صبري يا ولدي
- لا شكر على واجب يا عم علام
- عندما أنتهي من كتابة الفصل الأخير أريد أن تحتفظ بهذه الأچندة ولا تضيعها
- ربنا يطول عمرك يا عمي
- أنت الأحق بها يا ولدي ولن يحفظها غيرك
- في عينيا يا عمي
- لقد لاحظت مدى تعلقك بصورتنا الجماعية. البرواز لك بعد وفاتي. لكن احرص عليه ولا تضيعه.
- ربنا يعطيك طول العمر يا عمي
- تعيش يا ولدي. البرواز والأچندة سيكونان أمانة في عنقك ما حييت

يأتي النادل يصب القهوة في الفناجين يناول صبري عم علام الفنجان ويتحدثان عن أخر المستجدات حول تجديد الشقة والإعداد لفتح المكتبة فإذا بهاتف صبري يرن ويتحدث ثم يستأذن عم علام لأمر عاجل في مكتبه وينصرف بينما يكمل علام فنجان قهوته ينظر للأچندة يفتحها فيقرأ فيها...

*****

وتمر السنة تلو السنة..

يجلس فكري على الكرسي يمسك بالكنكة يصب القهوة ثم يدير مفتاح الراديو تصدح أم كلثوم بصوتها العذب:

- واحشني وأنت قصاد عيني... وشاغلني وأنت بعيد عني
- وعمري ما اشكي من حبك... مهما غرامك لوعني

يدندن السيد معها، و بينما يرتشف فكري القهوة، والسيد يباشر عمله في سرعة وإتقان. تقبل نعمة عليهما في ملابس سوداء.

- صباح الخير يا فكري.
- صباح النور يا ست البنات. لماذا ترتدين ملابس سوداء؟
- ذاهبة لأعزي أم عاطف جارتنا في العطارين.
- من مات عندها؟
- زوجها المعلم مسيحة تاجر الموبيليا.
- الله يرحمه.
- سأذهب حتى لا أتأخر. خد بالك من نفسك.
- ألم يحن الآوان بعد؟
- ومن يخدم عطية يا فكري؟
- ألا من أخبار عن صلاح؟
- من يوم هروبه مع وردة لا جديد.
- لو كان أبوها لم يصر على رفض صلاح وتصميمه على أن يزوجها من تاجر القطن ما هرب صلاح بها.
- كل ما أخشاه إن عاد أن يؤذيه المعلم.
- رغم علمه بزاوجهما ما زال يريد إيذاءهما؟
- ربنا يستر.. سأنصرف لألحق الجنازة وأعود قبل أن يستيقظ عطية.
- كان الله في عونك يا نعمة.
- الطريق طويلة فلا تربط مصيرك بمصيري يا فكري.
- كل يوم تسمعيني هذه الجملة وأجيبك بإجابة واحدة، لن أكون لغيرك ولن تكوني لغيري مهما كان.
- مع السلامة.
- أراك غداً يا ست البنات.
- إن شاء الله يا سي فكري.
- أوصلك يا نعمة؟
- لا. انتبه أنت لحالك، وشوف أكل عيشك.
- مع السلامة يا قلب فكري.
- أفوتك بعافية.

وأمام بيت المعلم مسيحة في حي العطارين تقف عربة الجنازات السوداء ذات النوافذ الزجاجية تجرها ست خيول مغطاة بالأقمشة يضع المعزون الصندوق المغطى بالقماش الأبيض داخل العربة التي تتحرك يتبعها المعزون من أهل الحي لمقابر الشاطبي حيث المثوى الأخير للجار العزيز المعلم مسيحة وما أن انتهت مراسم الجنازة حتى خرج المشيعون للجنازة بعد تقديم واجب العزاء لزوجته وأبنائه وأخوته. تنطلق نعمة مسرعة للبيت لتلحق عطية الذي أوشك أن يستيقظ ويحتاج

للحمام والفطور ليتناول أدوية القلب فقد أصيب بداء أضعف قلبه وصار قعيد البتر والمرض لا يقوى على مساعدة نفسه

على المقهى..

يتبادل الأصدقاء الحديث حول ما تذيعه نشرة الأخبار:

- اخفض صوتك يا فكري.
- موضوع غلق خليج العقبة ربما يشعل الحرب.
- وهل نحن مستعدون لذلك؟
- يا أستاذ كامل. الرئيس أكد أنه سيلقيهم في البحر.

تسرع الشهور تلحقها السنوات ولا جديد تحت الشمس يطرق الصيف أبواب المدينة بعنف ليعلن قدوم ليالي غاب عنها القمر.

وذات يوم يجلس الناس في وجوم يخيم عليهم الحزن بينما النقاش يدهن زجاج الأبواب بالزهرة الزرقاء فيما يجد البناء في بناء جدار على الرصيف أمام مدخل باب المقهى. ينبعث من الراديو صوت عبد الحليم حافظ يغني:

- عدّى النهار و المغربية جايّة
- تتخفي ورا ضهر الشجر
- وعشان نتوه في السكة
- شالِت من ليالينا القمر

يلحظ علام رجلين يحملان دلوا وفرشاة يكتبون بخط عريض على جدران البيوت (سنحارب)، و (النصر لنا) يلتفت علام فيجد فكري وقد اغرورقت عيناه بدموع القهر يحاول اخفاءها:

- كفاك بكاءً يا فكري.
- كيف ذلك؟ ألم نسقط طائراتهم؟
- ها هو الرئيس قد رجع عن قرار التنحي وستتحسن الأحوال.
- لابد أن نحارب ما أُخذ بالقوة لا يُسترد إلا بالقوة
- معك كل الحق يا فكري. سوف تثبت الأيام أننا قادرون على استرداد أرضنا المسلوبة.

يربت علام على كتف فكري. يتماسك فكري يمسح دموعه:

- هل تزور صباح؟
- أنا ونعمة نزورها بانتظام كما أن الأسطى فوزية تحرص هي أيضا على زيارتها.

- أستأذنكم فقد تأخرت.

يسأله علام:

- وأنت يا فكري هل من جديد؟
- لا نعرف لصلاح أرضاً وعطية قعيد تماماً والعبء يزيد على نعمة؛ ترفض حتى أن نتزوج وأعيش معها العطارين؛ ترى أن الزواج سيمنعها من خدمة عطية ورعاية السيد. وغياب صلاح وزوجته وردة يعكر صفو حياتها.
- كان الله في عونكما. ألا تفكر في الزواج بغيرها ويكون لك ولد يحمل اسمك
- لن أكون لغير نعمة، ولن تكون نعمة لغيري.
- ربنا يقرب البعيد، ويجمع شملكما يا فكري.

يستمر الصراع محتدما؛ يخيم الحزن على مصر وأرجاء الوطن العربي لوفاة الزعيم جمال عبد الناصر والأرض ما زالت أسيرة ورحى الاستنزاف تدور، وقافلة الشهداء لا تتوقف، الجميع مصرون على الحرب لاسترداد الحق المسلوب وتحرير سيناء الحبيبة.

وفي سجن دمنهور للنساء:

داخل صالة الزيارة تجلس النزيلات أمام ذويهن تتداخل الأصوات تتشابك الأحاديث والنزيلات بين باكية وسعيد ة. تقبل صباح على فكري يبدو عليها الإرهاق وقد صبغت شفتاها الزرقة وعلت وجهها صفرة المرض.

- كيف حالك يا أم السيد؟
- نحمد ربنا على كل حال. أين نعمة؟

يقص فكري على صباح ما حدث

- الله يكون في عونك يا نعمة، والسيد كيف حاله؟
- من شابه أباه فما ظلم. لا يحب المدرسة؛ يهوى البحر والصيد.
- خذه معك يا سي فكري الدكان؛ يتعلم صنعة.
- هو معي في الدكان لا تقلقي.
- طمني على خالتي فوزية. لم تزرني من فترة طويلة.
- الأسطى فوزية تعيشي أنت.

تشهق صباح ضاربة صدرها بيدها تنهمر الدموع من عينيها:

- الله يرحمك يا خالتي.
- ركزي في صحتك. لقد تركت لك مبلغ في الأمانات

ويدور الحديث وتسأل صباح ويجيبها فكري. ينبعث صوت خشن في نبرة جادة حازمة:

- الزيارة انتهت.
- خدي بالك من نفسك يا أم السيد.
- سلم لي على نعمة
- المرة القادمة سأحضر السيد معي.
- الزيارة انتهت.
- أشوف وشك بخير.
- مع السلامة.

في حجرة صغيرة في مدخل عمارة: يقف رجل في بزته الأنيقة ينادي:

- يا صلاح.. يا صلاح.
- نعم يا باشا.
- لا تنس تغسل سيارتي مبكراً.
- حاضر سعادتك.

تنتفض وردة تضع صغيرتها على الدكة تهرع إلى زوجها الذي أبدله المرض بحمرة الوجه اصفرارا فانتفخت بطنه يتحرك بالكاد:

- ارتاح أنت مريض يا صلاح، وأنا أغسل سيارات سكان العمارة.
- لا يا وردة. ربنا يقويني من أجلك ومن أجل "منى ".

في المقهى: يقبل علام على فكري الذي كان يجلس وحده:

- أين كنت؟
- سافرت مع الأستاذ كامل للقاهرة. كانت الجنازة مهيبة يا فكري
- الله يرحمه مات قبل تحرير الأرض.
- وكيف ستسير الأمور؟
- سيتولى أنور السادات الحكم.
- وماذا عن الحرب؟
- لا سلم ولا حرب.
- وكيف نستعيد أرضنا؟
- ربنا موجود.

في بيت مريوني بالعطارين: يستيقظ عطية ينادي أخته:

- يا نعمة.
- نعم يا عطية.

- أريد دخول الحمام. (يقولها بكل حزن وانكسار)

تبتسم نعمة في وجه أخيها لتمحو من نفسه أثر الحزن والانكسار:

- من عينيا حاضر.

تحمل نعمة عطية ليدخل الحمام. تعد الطعام للسيد وعطية

- لقد أعددت الطعام.

وما أن هم ثلاثتهم بتناول الفطور حتى اخترق مسامعهم صوت طرق على الباب:

- الباب يا نعمة.
- حاضر يا عطية.

تفتح نعمة الباب فإذا بشابة جميلة في ثوب أسود تحمل على كتفها طفلة صغيرة وفي يدها صُرة من القماش يبدو على وجه الشابة ملامح الحزن تبادرها نعمة متسائلة:

- نعم يا حبيبتي. من أنت؟

تنهار الشابة باكية:

- وردة زوجة صلاح أخوك.

تتهلل نعمة فرحا تبحث عن صلاح ربما يكون قادما خلف زوجته:

- يا عطية صلاح رجع.
- أين. أين؟

تزداد الشابة في البكاء. تسألها نعمة:

- هذه ابنتكم؟
- نعم ابنتنا "منى "

تلتقط نعمة الصغيرة من على كتف امها تقبلها:

- يا حبيبتي. تعالي في حضن عمتك. أين صلاح؟

وردة باكية ترتمي في حضن نعمة:

- صلاح تعيشي أنت.

صراخ وعويل وبكاء. ..

يختم المقرئ الربع الأخير بقوله تعالى « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية وادخلي في عبادي وادخلي جنتي » صدق الله العظيم. الفاتحة. يقرأ كل من في السرادق فاتحة الكتاب على روح الميت ينهض الجميع وفي قطار

يسيرون يصافحون فكري وعلام وعطية القابع في كرسيه يتقبل العزاء وقد تقرحت عيناه حزنا على أخاه الأصغر. وفي داخل البيت تشد النساء بأيديهن على يد نعمة التي يملأها الحزن على فقد أخيها بينما تنام منى في حجرها، وتعزي النساء الزوجة المكلومة.

ينتهي سرادق العزاء الذي أقامه فكري لصلاح:

يجلس فكري وعلام وكامل ونعمة في حضور عطية. يجلس معهما المعلم جابر الدحليشي والد وردة بينما تجلس وردة تحتضن ابنتها منى في صدرها:

- يا معلم جابر. نعمة تريد أن تربي مني وتراعي وردة.
- أنا أولى بابنتي وردة يا معلم فكري يكفي الست نعمة أعباءها الكثيرة.
- لكن وردة مصممة على البقاء مع نعمة، ولن تنقطع عنك بالزيارة.
- يا معلم اتركها وما تريد.
- يا أستاذ علام. ابنتي وحفيدتي معي أفضل. احضرنا في الكلام يا أستاذ كامل.
- والله إن كانت تلك رغبة وردة فاتركها وما تريد. هي أدرى بالأصلح لها ولابنتها.

ينصاع المعلم جابر الدحليشي لكلام الرجال ونزولا على رغبة ابنته التي فقدت زوجها:

- كما ترون...

تنفض جلسة الرجال فإذا بالأستاذ كامل يستأذن:

- سأنصرف يا جماعة تعلمون أن زوجتي قد ولدت اليوم
- ما اسم المولود؟
- صبري
- عاشت الأسامي
- أشكركم. السلام عليكم
- وعليكم السلام

في قهوة أنح بالأنفوشي:

- لقد أعلن الرئيس السادات ثورة التصحيح وسيتم الإفراج عن كل المعتقلين
- الحمد لله وسيخرج لمعي
- انقضى العام يا فكري ولابد أن نفرح بك
- عليَّ أن أنسى ذلك. هكذا قالت نعمة
- ولماذا؟

- سترعى السيد حتى تخرج أمه وترعى عطية ووردة، وتربي "منى "حتى تتزوج.
- وماذا يمنع الزواج؟
- طلبت مني أن أتزوج غيرها، وأنت تعرف موقفي من ذلك، وسنظل مخطوبين
- كن أكثر إلحاحاً ترضخ لك
- أنت لا تعرف نعمة كما أعرفها. يومياً تأتي للدكان صباحاً تطمئن على حالي تعود لبيتها تراعي أهلها ودكانها لا تفوت يوماً
- ربنا يخليكم لبعض، ويلم شملكم على بعض.

(٣) حكم علينا الهوى

أحد أيام صيف ١٩٧١، وقبيل الفجر تصل عربة بوكس فورد إلى مديرية الأمن في أبي الدرداء ينزل منها الضابط يتأبط ملفات ورقية يتبعه اثنان من العساكر في زيهم الأبيض بينهم ثلاثة رجال في الكلبشات أوسطهم يسير بصعوبة يدفعه العسكري بقوة وما أن بزغ النهار حتى بدأت ترام المدينة تتحرك. فإذا برجل يغادر بوابة المديرية يبدو عليه الإرهاق يشير لسائق الترام. يجلس على الكرسي جوار النافذة. تمتلئ الترام بالنساء؛ فالوقت ما زال مبكرا، ومناسب لشراء السمك من الحلقة. يطلق عينيه من خلف النافذة الزجاجية على الشوارع والأبنية التي تحفظ في دفاترها أفراح المدينة وأحزانها. لا يصدق أنه صار طليقا بعد كل تلك السنوات التي حرم فيها من شبابه، وزوجته، وابنه الذي لم يراه أبدا. يتبادل مع الشوارع والأبنية الذكريات؛

يتشاركان في الشجون والهموم. يقلب معهما ألبوم الذكريات لتلك المدينة التي لم يعرف سواها في حياته؛ فتبكيه الذكريات.

ينبعث صوت الكمساري مدويا؛ ينتشله من بين أمواج الذكريات المتتابعة:

- حلقة السمك. يالا اللي نازل.

يدخل الحارة التي شاخت دون أن يلتفت إليه أحد؛ تتثاقل خطاه. يتأمل الحارة؛ يتمنى قبلة من الحبيبة لتسد رمق حرمانه. يمني النفس بعناق الزوجة والولد. يناجي سحائب الفراق الصائمة عن مطر الوصال أن تمطر لتبلل ريقا تشقق جفافا لطول الفراق والحرمان، وعند البيت يدخل حجرته الخاوية الجدباء يروي أرضها هطول دموعه. لا يطيق صبرا. أين صباح؟ وأين ابني؟ (محدثا نفسه).

ينطلق لبيت فكري يطرق الباب فلا مجيب؛ تشتد حيرته. يزداد قلقه؛ يهرع إلى الترام يتوسل إليها أن تلتهم القضبان اللامعة التهاما؛ ليقابل فكري فيطمئن قلبه، وفي شارع صفية زغلول يسرع رغم آلامه الجسدية؛ يتعجل الوصول إلى دكان الخواجة.

سجن دمنهور زيارة استثنائية بمناسبة عيد الجلاء:

يفتح باب الزيارة تنطلق النزيلات في جلاليبهن البيضاء تسبق خطوات لمعي الجميع يتبعه ابنه السيد يتأبط ذراع فكري. فإذا بلمعي مناديا في لهفة

- صباح

تتجمد صباح في مكانها يقف لمعي دامعا تتحدث العيون ملؤها الدموع يحتضن السيد والديه تبكي صباح فرحا لا تستطيع إيقاف الدموع المنهمرة يجلس فكري باكيا على حظهما العثر في تلك الحياة القاسية التي أذاقتهما المر كؤوسا.

ويمضي الوقت والبكاء سيد الموقف

- الزيارة انتهت.

يقيم لمعي فرشا على باب حلقة السمك يصنع فيه الشاي للباعة والصيادين لا تفوته زيارة واحدة لصباح. يعد الأيام والليالي والساعات حتى يجمع الله شملهما، والسيد يعمل في دكان فكري، ويقيم مع والده؛ لا يتركه كلما زار أمه في السجن.

في دكان فكري:

- فينك يا لمعي؟ لم أرك من أول رمضان.
- في الدنيا. أين السيد؟
- ذهب لتوصيل شغل للزبائن. اجلس. رمضان كريم.

- سأذهب لصلاة العصر في جامع القائد إبراهيم.
- حرما يا صاحبي.
- جمعا إن شاء الله. السلام عليكم.
- وعليكم السلام.

وبينما يستمع فكري للراديو، والإذاعة تبث الأغاني الوطنية الحماسية بغرض رفع المعنويات وإعلان التحدي للعدو الغادر. فإذا بصوت ابن الإسماعيلية مطرب السمسمية عبده العثمالي تصدح:

يا دنيا سامعاني.. أبويا وصاني

ما أخلي جنس دخيل يخش أوطاني

الأرض دي أرضي أحميها أنا وولدي

أفديها بالأرواح وتعيشي يا بلدي

أيوة الله

إذا بالإذاعة تقطع بث الأغنية لتذيع نشرة الأخبار:

"هنا القاهرة..

إليكم أيها المواطنون البيان رقم 7 الصادر عن القيادة العامة للقوات المسلحة المصرية بتاريخِ السادسِ من أكتوبرِ سنة 1973

بسم الله الرحمن الرحيم

نجحت قواتنا المسلحة في عبور قناة السويس على طول المواجهة وتم الاستيلاء على منطقة الشاطئ الشرقي للقناة وتواصل قواتنا حاليا قتالها مع العدو بنجاح كما قامت قواتنا البحرية بحماية الجانب الأيسر لقواتنا على ساحل البحر الأبيض المتوسط وقد قامت بضرب الأهداف الهامة للعدو على الساحل الشماليِ لسيناء وأصابتها إصابات مباشرة.. هنا القاهرة "

ينتفض فكري في مكانه وبصوت عال يصيح فرحا:

- الله أكبر. حاربنا. عبرنا.

فرحة عارمة بالعبور تجتاح الشوارع. تتحلق الناس تستمع للراديو تتابع البيانات. يتأكد الجميع هذه المرة إنه النصر المبين قد تحقق تنتشر الدعاوى بين المواطنين للتبرع بالدم فتمتلئ المستشفيات بالمتبرعين من مختلف الأعمار

بعد الإفطار على المقهى:

لا حديث لرواد المقهى سوى حديث العبور والنصر.

تمضي السنوات و تعود المدينة لسيرتها الأولى. حتى هلت السنة الجديدة ورغم برودة الشتاء تشتعل البلاد في ١٧ و ١٨ يناير.

وبينما تستعد المدينة الساحلية لاستقبال ضيوفها من المصيفين المصريين والعرب فتزدحم بهم الكازينوهات والشوارع الرئيسة والكورنيش في حجرة لمعي طرق شديد على الباب ينتفض السيد يفتح الباب:

- نعم يا شاويش. (يقولها لمعي مندهشا)
- الباشا عاوزك في القسم.
- خير يا شاويش؟
- هناك تعرف؟
- سأذهب معك يا أبي.
- خير. اللهم اجعله خير.

وما أن دخل لمعي والسيد مكتب الضابط حتى عرفا أن صباح تم الإفراج عنها ولكن تم إيداعها المستشفى لسوء حالتها الصحية ولهم حق استلامها من المستشفى أو تركها فيها لتلقي العلاج. ينطلق لمعي والسيد على مستشفى الميري في محطة الرمل.

- لا أخفي عليكم. حالة القلب متأخرة.
- يعني إيه يا دكتور؟
- مسألة وقت يا والدي. لو تحب تأخذها معك؛ أكتب لها خروج.

وما أن دخلت صباح حجرتها مع لمعي والسيد حتى راحت عيونها تطوف في أرجاء الحجرة.

- حمد لله على السلامة يا حبيبتي. نورتي بيتك.

تبتسم ابتسامة تغلفها مرارة الفراق:

- ياه. أول مرة تقولها لي يا لمعي.
- حبيبتي وحب عمري الوحيد.
- نفسي أنام شوية.
- هل في نفسك شيء آخر.
- نفسي في أكلة فسيخ.
- من النجمة تكون عندك يا أم السيد.

مع إشراقة اليوم الجديد ينهض لمعي ينظر لصباح التي أقعدها الإعياء الشديد تريد أن تنهض من سريرها فلا تقوى:

- نامي وأنا سأذهب للسوق أشتري لك طلبات البيت.

تنام صباح يغطيها لمعي يقبل جبينها بحنو تربت على كتفه. وما أن عاد لمعي من السوق.

- صباح. اصحي. العصر سيؤذن. يا صباح.

تنضم صباح إلى قافلة البؤساء الذين مروا في الحياة غرباء؛ دون أن يتركوا ورائهم إلا سيرتهم المملوءة بالشجن رحم الله صباح وكل البؤساء. يهيم لمعي على وجهه يرتمي في أحضان البحر يناجي طيف صباح دون جدوى، يجلده ألم الفراق. يتوه في دروب الصمت القاحلة، يتعجل لقاء حبيبة عمره. يَجُوبُ دَهَاليزَ اللَّيلِ وحدَه. سَابِحٌ فِي فَضَائِه بِلَا جَاذِبِيَةٍ. يرجو لقاءها على البحر.

ذات يوم في ذلك البيت المتهالك، على الكنبة وقد ألقى برأسه للمسند يحملها، يمط عينيه الناعستين عبر زجاج النافذة، تتناثر زخات المطر على الزجاج، ينهض؛ يرنو إلى وجوه المارة، تتوه كل الوجوه إلا وجهها يناجيه؛ يفوح عطرِها في المكان؛ يشعل وهج عشق لم يطفئه الفراق في بحر الذكريات، يخرج من البيت يتوجه إلى البحر يجلس في ذات المكان الذي جمع بينه وبين صباح، ويلفت لمعي شخص يقف على إحدى البلوكات، وقد مد الصنارة في انتظار صيده فتغمز الصنارة؛ يتذكر لمعي الأيام الخوالي:

- انظري يا صباح الصنارة غمزت. انظري لقد صاد سمكة صغيرة.
- مسكينة. أخذها الصياد من بين أهلها.

يضحك لمعي من كلام صباح:

- ما هذا الكلام يا بنت العبيطة؟

ترتسم على وجهه ابتسامة يغلفها الحزن. يمد بصره للأفق فيرى صورة صباح شاخصة أمامه بوجهها الصبوح الذي يشع جمالا، وغمازتين في الوجنتين مع كل ابتسامة. ينسدل شعرها الكستنائي من تحت المنديل أبو أوية. يتمتم لمعي بمونولوج:

كلنا عاوزين سعادة.. بس فين هي السعادة.

ولا إيه معنى السعادة.. قولي يا صاحب السعادة.

قولي. قولي.

فإذا بطائر أبيض يحلق فوق صفحة الماء الزرقاء؛ يفتر ثغره مبتسما. يستكين القلب في مهده؛ يتمدد الجسد؛ يلقي الصياد صنارته، ويهرع إليه؛ يهزه فلا يجيب:

- يا حاج. يا حاج. إنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي حين تشييع جنازة لمعي إلى مثواه الأخير في مقابر العامود في قبر مجاور لقبر صباح تستقبل الإسكندرية الرئيس السادات ونظيره الأمريكي چيمي كارتر وتنطلق البلاد في سياسة الانفتاح أكثر وأكثر.

تمر الأيام والشهور تغير نعمة نشاطها التجاري إذ حولت دكانها من بيع الطيور إلى محل لبيع ملابس المحجبات. ڤاترينة زجاجية تعرض بها الطرح والعباءات الحريمي. يعلو المحل يافطة مضيئة بالنيون مكتوب عليها - محلات مريوني لملابس المحجبات - تزدهر تجارة نعمة مع انتشار الحجاب في المجتمع المصري بين السيدات في حين ظهر الكثير من الرجال في الجلباب الأبيض يطلقون لحاهم؛ تشير نعمة على فكري بالسفر إلى لبنان أو تركيا لاستيراد الملابس المستوردة وتحويل دكان المكوجي إلى محل لتجارة الملابس المستوردة كما هو الحال في محطة الرمل، ويعمل فكري بنصيحتها يعاونه السيد وتم تجهيز المحل وقد قرر أن يسافر لتركيا لاستيراد الملابس المستوردة بعد أن اشتعلت الحرب الأهلية في لبنان فلم يعد السفر إلى لبنان آمنا. على أن يجهز السيد المحل للافتتاح بمجرد وصوله من تركيا. في مطار أنقرة يقف فكري وحوله حقائبه الكثيرة المكدسة بالملابس المستوردة تقبل عليه عجوز بيدها حقيبة كبيرة وأخرى صغيرة تسأله أن يحمل عنها الحقيبة الكبيرة مع حقائبه حتى تشتري بعض أشياء تحتاجها. يحمل فكري حقيبتها يأتي عليه الدور للتفتيش يبحث عن العجوز التي ذابت في صالة المطار التي تعج بالمسافرين والعائدين فلا يجد لها أثرا يناديه ضابط المطار بأن يعجل؛ يقبل فكري عليه وهو يتلفت حوله بحثا عن العجوز والتي توارت بعيدا تتابع الموقف عن بعد. يرتاب الضابط فيه لما رأى من اضطراب واضح على وجهه؛ فيدقق في التفتيش وإذ فجأة يخرج الضابط من الحقيبة التي تركتها له العجوز مخدرات؛ يأمر الضابط بإلقاء القبض على فكري في حين تتابع العجوز متوارية، وما أن تم القبض على فكري حتى فرت بنفسها مسرعة تغادر المطار بينما تصطحب الشرطة التركية فكري إلى سيارتهم التي انطلقت في طريقها. ينقضي الشهر ولا خبر عن فكري ونعمة في غاية القلق لا تعرف شيئا عن مصير فكري وفي إحدى الليالي يأتي علام بصحبة كامل يعتصر وجههما الحزن الشديد:

- وصل إلينا مصري عائد من تركيا قابل فكري في السجن.

تجحظ عينا نعمة تبيض شفتاها تتسارع نبضات قلبها حتى كاد أن ينخلع من بين ضلوعها تضرب بكفها على صدرها بشدة:

- السجن؟!!

يخيم الحزن على حياة نعمة حزنا وكمدا على فكري الذي حكم عليه بالسجن ظلما في الغربة عشر سنوات. تمضي الأيام والشهور تليها السنوات تباعا:

- لماذا لا تتناول دواءك يا عطية؟ لا تتعب قلبي معك.
- وما فائدة الدواء في مرض لا رجاء في الشفاء منه. ألم تمت أمنا بذات الداء.
- رحمة الله واسعة يا أخي. خذ بالأسباب.

تدخل وردة من زيارة والدها تصحبها منى تملأ الابتسامة وجهها:

- يا نعمة.. منى جاءها عريس.
- يا ألف مبروك. من؟
- الأستاذ "علي" ابن الجيران.
- وماذا يعمل؟
- مدرس، ولديه شقته في سيدي بشر، وجاهز.
- وأنا جاهزة. لكن المهم رأي منى.

تبتسم منى وتجري على حجرتها في خجل:

- ألف مبروك يا وردة.
- الله يبارك فيك يا عطية.

وفي كازينو الشاطبي تقام ليلة زفاف منى؛ تعم السعادة الجميع. أما نعمة فتخفي أحزانها على أخيها صلاح الذي مات، وأخيها عطية الذي اشتد به المرض فمنعه حتى من حضور زفاف منى، ويزداد حزنها على فكري الذي مرت السنوات وهو في السجن ظلما. يستيقظ عطية من نومه وقد بدت عليه علامات العافية تملأ وجهه الابتسامة:

- نفسي آكل كفتة مشوية ومعاها طبق طحينة.
- من عينيا يا حبيبي.

أرسلت نعمة من يشتريها فورا من الحاتي، وما أن وضعت نعمة لأخيها الصينية أمامه حتى مد يده ينزع لفة الورق عنها، وبلهفة يلتقط أصبع الكفتة يغمسه في الطحينة يأكله مستمتعا:

- بالهنا والشفا. سأعد لك الشاي.

وما أن انتهى عطية من التهام الكفتة حتى كمش لفة الورق بيديه يمسحهما فيه. تأتيه نعمة بأبريق ماء وصابونة وفوطة؛ يغسل يديه وفمه:

- ربنا يكرمك يا نعمة.

تحمل نعمة الصينية، ثم تأتي بالشاي. يحتسي عطية الشاي، ويدور حديث مع نعمة، وبعد وقت تعد نعمة نفسها لتنزل لمحلها كي تباشر العمل. في حين يتابع عطية التليفزيون.

في اليوم التالي تقف عربة الإسعاف أمام محل مريوني، ونعمة وعلام وكامل مع رجلي الإسعاف يحملان عطية، وتنطلق عربة الإسعاف بالجميع إلى المستشفي.

- شد حيلك يا عطية. تمسك بالأمل.

وفي صوت واهن ينظر عطية نظرة إشفاق على أخته التي أفنت زهرة شبابها، وضحت بسعادتها من أجلهم جميعا:

- الأمل شيء جميل يا نعمة؛ فهو الذي يخبرني أن الله سيسعدني الآن، وأن الدنيا التي أدارت لي ظهرها وضاقت بي؛ فإن الله يوسع لي في جانب آخر.

يسكن القلب الذي طالما خفق في مهده؛ تصرخ نعمة باكية، وفي صالة البيت الكبيرة تجلس نعمة وزوجة أخيها وردة معهما منى تحتضن طفلها الرضيع. جميعهم في ملابس الحداد السوداء يتلقين العزاء من النسوة بينما يقف محمود زوج منى والمعلم جابر الدحليشي وعلام وكامل في السرادق يتلقون العزاء من الرجال. يخلو بيت العطارين إلا من نعمة بعد أن انتقلت وردة لتعيش مع ابنتها منى والتي صارت أما لطفلين وتحتاج أمها لجانبها وكانت كلتاهما لا تنقطعان عن زيارة نعمة كل أسبوع يصطحبهم محمود في سيارته؛ يقضون اليوم مع نعمة التي كانت تقتل وحدتها بشئون تجارتها. يأتي إليها السيد مرة في الأسبوع للاطمئنان عليها من جانب، ومن الجانب الآخر يقدم لها إيراد محل فكري بعد أن ينال أجره لإدارة المحل؛ فقد صار السيد أبا الآن ويسكن في شقة في الحجاري. لا ينقطع علام يرافقه كامل عن زيارة نعمة في محل مريوني.

*****

وذات يوم بينما انتهى علام من مكالمة ابنته ثم تلت تلك المكالمة حديث مقتضب مع أحفاده أطلعهم على أخر المستجدات، وفي حين يعد نفسه للخروج إذا بمكالمة ترده من صبري يخبره فيها بأن عليه إنهاء إجراءات مغادرة الأوتيل استعدادا للانتقال لبيته في بحري:

- كم أسعدتني بمكالمتك تلك يا صبري. والمكتبة؟ الحمد لله.

يعد علام حقائبه يكاد قلبه يطير فرحا بالعودة لبيته بعد كل تلك السنين. تجتاحه ذكريات عودة فكري من تركيا بعد عشر سنوات قضاها حبيس السجون التركية متهما بتهمة باطلة لم يرتكبها ولكنه في النهاية عاد لبلده وأهله...

*****

من بوابة مطار النزهة يخرج فكري يسير الهوينى يتلفت حوله وكأنه طفل فقد بوصلة الطريق ولا يملك خريطة. يحتضن حقيبة جلدية صغيرة تحوي أوراقه الثبوتية. يعبر الطريق السريعة للجهة الأخرى يسأل المارة عن وسيلة تقله لبحري:

- اركب مشروع المحطة، ومن هناك اركب مشروع بحري.

وما أن وطأت قدما فكري أرض بحري حتى اغرورقت عيناه بالدموع؛ فقد ردت إليه روحه. يتوجه للبحر يسير على قدميه يتنفس الصعداء تهفو روحه إلى لقاء نعمة ليطمئن عليها. وعند حلقة السمك يلقي بنظره يمينا حيث مدخل حارته؛ فيرى طيف أمه فاتحة ذراعيها تبتسم له عند استقباله كلما عاد للبيت من العمل يحمل لها أجرة عمله في سعادة وهي تقول له (نورت بيتك يا عزيز عيني) وتبلغ سعادته مداها إن وجدها قد أعدت له صينية السردين التي يعشقها؛ يفتر ثغره بالابتسامة؛ يمسح بكفه دموعا قد انسالت على خده فيقرأ لروحها الفاتحة. وفي العطارين يقف أمام واجهة محل مريوني يفتش بعينيه داخل الدكان عن نعمة فإذا بالعينين تلتقيان؛ فتهفوا روحاهما تتعانقان. يستبدلان بالحديث الصمت. يسيران نحو بعضهما ببطء لا تصدق العين ما ترى. لا ينطقان ببنت شفة؛ لا تطيعهما الألسنة. تتوه منهما اللغة تفر هاربة الكلمات، يهيم فكري محلقا فِي عينيها الدامعتين بالأشواق؛ تتعانق أكفهما. تتحاور العيون المشتاقة في لجة الدموع غارقة، وقد صمت آذانهما عن العالم حولهما لا يسمعان إلا حديث عيونهما.

بزفرة حارة وكلمة دامعة وثغر باسم:

- وحشتيني
- ياه. يا ابن عمري. وحشتني...

تعد نعمة لفكري صينية السردين يتناولان الغداء معا فيدق الباب ليدخل علام وكامل يلحق بهما السيد بعد أن اتصلت عليهما نعمة تخبرهما بوصول فكري بالسلامة. تعود نعمة لعادتها الصباحية كل يوم وأمام المقهى على ناصية تقاطع شارع صفية زغلول مع شارع السلطان حسين بمحطة الرمل ذلك الحي الذي شهد أول لقاء بين قلبين طاهرين تعاهدا على الحب حتى أخر العمر ومضى قطار العمر في حين يقف "فكري "في انتظار نعمة. يقف فكري في سترته المهندمة، تتدلى رابطة عنقه الرفيعة، يعتمر قبعة أفرنجية، ينفث دخان سيجارته، ينظر في ساعته الفضية، وقد تعلقت عيناه بالرصيف المقابل. وفجأة يشرق وجهه بالابتسامة. تقبل عليه نعمة يرتسم على وجهها ابتسامة الخدر العذارى، وقد كست الحمرة وجنتيها، فإذا بفكري يسرع الخطوات عليها بوجهه الوديع، تحمل قسمات وجهه بسمة قد غلفها حنان وحب لا تخمد جذوته مهما طالت الأوقات وتباعدت المسافات.

- صباح الخير يا نعمة.
- صباح النور يا فكري.. تأخرت عليك؟
- تأخرت كثيراً.. ألم يحن الأوان بعد يا نعمة؟

ينبعث من راديو المقهى صوت الفنان "كارم محمود "يصدح بصوته الشجي:

- على شط بحر الهوى رسيتْ مراكبنا
- والشوق جمعنا سوى إحنا وحبايبنا
- على شط بحر الهوى..

- فاكرة يا نعمة؟
- وهل هذا يُنسى أبداً.
- السنين جرت بنا يا نعمة.
- ها أنا كل يوم أمر؛ وأطمئن عليك.
- أرأيتي الدنيا يا نعمة ماذا فعلت بنا؟
- انتبه فقط لحالك و إياك تتعب روحك في العمل. أفوتك بعافية
- ما زال الوقت مبكراً يا نعمة.
- يبارك لي في عمرك يا سي فكري.
- أتوحشك وأنت أمام عيني يا ست البنات.
- منى ستزورني اليوم مع زوجها، وتعمل حسابك عملت لك صينية سردين.
- أوصلك يا نعمة؟
- لا.. انتبه أنت لحالك، وافتح دكانك.
- حاضر يا ست البنات؟
- لا تنس يا سي فكري ننتظرك على الغداء.
- مع السلامة يا قلب فكري..

تزداد حمرة الخجل في وجنتيها، وتدير وجهها؛ تخفي ابتسامة رقيقة تزيدها بهاءً، كالوردة التي اجتهد الزمن أن يمتص منها ماء الحياة؛ فتذبل ولكن لم ينل من عبيرها الفواح فما زالت تحتفظ برائحة الورد وإن ذبل.. تنصرف في طريقها، ويعبر فكري الطريق لدكانه المواجه للمقهى، يستدير كل منهما للآخر، فتتعانق نظراتهما؛ تأبيان أن يفرقهما أحد، تمضي نعمة ويصل فكري لدكانه. في شوارع الإسكندرية. نعمة وفكري قلبان تعاهدا على الحب الطاهر طوال تلك السنين، ورغم كل تصاريف القدر التي واجهتهما ما زالا قادرين على تحدي الزمن. السيد يقف أمام الدكان يشفق عليهما. يقبل عليه فكري فيمد السيد يده لفكري:

- صباح الخير يا عمي.
- صباح النور يا سيد.
- هل إقامتك في البنسيون مريحة؟
- مرت شهور وقد اعتدت عليه الحمد لله.
- ولماذا لا تعيش عندي.
- اتركوني على راحتي. أنا أريد ذلك.

يناول فكري المفاتيح للسيد ليفتح المحل، يجلس فكري على كرسي وأمامه مكتب صغير في مدخل المحل، ويبدأ السيد في مباشرة المحل فقد صار ماهرا في بيع الملابس الجاهزة؛ فقد تعودت الزبائن على جودة محل "أليكو" للملابس الجاهزة، يدير فكري الراديو الخشبي العتيق الذي مازال يعمل بكفاءة عالية، يشعل سيجارته، يسند رأسه إلى إحدى راحتيه. يستمع لأخبار الصباح، ويتنقل بين محطات الراديو بحثا عن الأغاني ومن أثير إذاعة الإسكندرية تنبعث أغنية بدرية السيد وهي تصدح بصوتها الرنان:

القسمة والمقدر ودوني في سكتك

والحب عليه اتقدر وبقيت من قسمتك

أصلك حلواني وخفه ياللي أنت شاغلتني

لفتني بحبك لفـــه ونستنى وفوتني

وانا حالف ما عشق تانى خلتني أفوت حلفاني

دا الحب عليه اتقدر وبقيت من قسمتك

تمس كلمات الأغنية شغاف قلبه يهيم مع الأغنية صامتا، والسيد يتابعه في صمت لا يريد أن يقطع عليه استمتاعه بالموال والأغنية، وتمضي الأيام ساكنة فاترة لا سعادة فيها سوى رؤية نعمة كل يوم فيستمد من رؤياها طاقة وشغف بالحياة التي لم يجن فيها سوى الأحزان. و ذات مساء وكانت الإسكندرية تودع المصطافين فقد اقترب موعد فتح المدارس بعد انقضاء الأجازة الصيفية؛ يقبل علام وكامل على فكري؛ يسرع السيد إلى مقهى السلطان حسين يطلب لهم القهوة وبينما يفرغون من القهوة يبادر علام فكري قائلا:

- ألم يحن الوقت لتتزوج يا فكري؟
- يكفيني أن أكون بجوار نعمة.
- جهز نفسك. غدا سنذهب لها وهي فرصة فابنة أخيها وزوجها محمود هناك ونطلب من نعمة إتمام الزواج. يكفي ما عانيتما طوال تلك السنين.
- فعلا يا فكري. حان الوقت لتتزوجا بعد كل ما عانيتم.

وفي بيت العطارين يقف الجميع يتابعون تحميل الأثاث الجديد الذي اشتراه فكري تنطلق الزغاريد من الأحباب والأصدقاء يتوجه علام إلى فكري:

- البيت قديم يا فكري لماذا لم تأخذ شقة في عمارة جديدة؟
- لا تنس أن محل نعمة تحت البيت؛ ولذلك هي متمسكة بأن نعيش هنا.
- ربنا يتمم بخير يا صاحبي.
- تعيش يا علام. منور يا أستاذ كامل.

- ألف مبروك يا فكري.

تجلجل الزغاريد يوزع السيد زجاجات المياه الغازية على الحاضرين، وفي ليلة خريفية هوائها لطيف وبعد أن ينتهي مأذون الحي من عقد القران ينطلق الجميع للعشاء في أحد مطاعم الكورنيش ثم يقضون السهرة في كافيتريا "والي "على البحر في كامب شيزار تكللهم جميعا السعادة الغامرة بينما يتبادل علام وكامل الحديث غير مصدقين أن فكري قد تزوج نعمة أخيرا بعد كل تلك السنين فقد أحيل كل منهما على المعاش وقد تزوج أبناؤهما وصارت لهم حياتهم الخاصة:

- كيف أحوال ابنك وبنتك يا علام؟
- بين الحين والآخر أذهب لسنترال محطة الرمل لأتصل بهما؛ لقد استقر كل منهما مع أسرته في ولاية ميتشغان الأمريكية وصار له عمله وحياته.
- المهم أنهم بخير.
- الحمد لله.

تمضي ليلة العرس يركب فكري ونعمة سيارة؛ ينطلق بهما السائق إلى بيت العطارين:

- مبروك يا ست البنات.

تجلس نعمة إلى جوار فكري في ملابس النوم على الأريكة، ويفتح فكري التليفزيون

- هات القناة الخامسة.
- سعيدة يا نعمة؟
- عندما تعثر في حياتك على الروح التي تكمل روحك كل ما تلاقيه من عذاب في الدنيا يهون، وأنت روح الروح يا فكري.

ترتسم على وجه فكري ابتسامة الفرح يتأمل وجه نعمة يهز رأسه:

- أخيرا يا نعمة.
- أخيرا يا ابن عمري.
- بحبك.

تخفض عينيها خجلا تتورد وجنتيها:

- أعملك عصير جوافة؟

يضحكان؛ يفتح زراعه ترتمي بخدها على صدره، وتمضي بهم الليلة في سعادة. في اليوم التالي ينهضان مبكرا، وبعد الفطور يعبث فكري في علب الكاسيت وفجأة يفتر ثغره بينما تقف نعمة في المطبخ يخرج فكري شريط الكاسيت يدير الكاسيت فيصدح صوت كارم محمود (على شط بحر الهوى) تخرج نعمة من المطبخ تغمرها السعادة

تجلس بجوار فكري، وقد ألقت برأسها على صدره يحيطها بذراعه، وعند العصر يجلسان لتناول الغداء يشعران بكل شيء يتحرك حولهما؛ ينتاب نعمة الفزع يأخذها علام في حضنه.. ينهار البيت عليهما؛ تصدر جريدة الأهرام صباح اليوم التالي، وفي صدر الجريدة: زلزال مدمر يهز مصر 60 ثانية عصر أمس. مبارك قطع زيارته للصين فور علمه بنبأ الزلزال ويعود إلى القاهرة اليوم. مصرع ٣٦٨ مواطنا بحميع المحافظات وإصابة ٢٥٠٠ وانهيار وتصدع ١٨٢ منزلا. الرئيس يأمر بسرعة صرف الإعانات لأسر الضحايا والمصابين ويتابع الموقف أولا بأول؛ ١١٠٠ شقة لإيواء المتضررين وإعانات مالية للضحايا. التأكيد على سلامة كافة مرافق الخدمات والمنشآت الأساسية. رئيس الوزراء عاطف صدقي يرأس لجنة تضم عشرة وزراء لمتابعة الموقف.

علام في حالة انهيار لا يقوى على الحركة؛ إلى جواره كامل يشد من عزمه:

- لابد أن ننهي الإجراءات حتى نتسلم الجثتين، وندفنهما.

يقبل عليهما السيد الذي لا تتوقف دموعه بكاء على الفقيدين؛ فاليوم يدفن أباه وأمه للمرة الثانية:

- لقد فتحت مقبرة أبي لدفن عمي فكري، ومقبرة أمي لدفن خالتي نعمة.

يعلو عويل وصراخ وردة ومنى وبانتهاء صلاة الجنازة يدفن فكري مع لمعي وتدفن نعمة مع صباح في مقابر العامود بحي كرموز.

بعد أيام وفي مكتبة علام لبيع الكتب يدخل عليه كامل فيجده في حالة اكتئاب شديدة يواسيه في مصابهما فقد رحل فكري ورحلت نعمة ولم يتذوقا من شهد الحياة حلوا قط. تؤول ملكية محل فكري للسيد، وأرض بيت العطارين صارت من نصيب منى.

- لابد أن تخرج من تلك الحالة يا علام. لم لا تسافر لأبنائك في أمريكا في رحلة قصيرة تغير فيها جو.
- هما يطلبان ذلك مني في كل مكالمة؛ لكنني كالسمك لا أستطيع ترك الإسكندرية.

تمضي سنوات التسعينيات وعلام بين بيته ومكتبته يلتقي بكامل بين حين وآخر لاسيما أن المرض يزداد يوما بعد يوم على كامل الذي لا يغادر البيت إلا قليلا. وفي مطلع الألفية الجديدة ربيع العام ٢٠٠١ يخبر علام صديقه كامل أنه ينوي قضاء زيارة لأبنائه في أمريكا ولن تطول الزيارة أكثر من ستة أشهر؛ يحتضن كامل رفيقه علام؛ يبكي الصديقان بكاء حارا:

- أشوفك على خير يا صديق عمري.
- انتبه لحالك، وارجع لنا بالسلامة...

وتدور رحى الحياة.

*****

ينتهي علام كعادته من مكالمة ابنته فتطول المكالمة هذه المرة ويطلب منها أن ترسل صور لأولادها وأحفادها على "واتس آب" ويطمئن على زوجها ويتحدث إليه ينهي المكالمة تجتاحه رغبة شديدة أن يسمع أحفاده وأن يراهم عبر تقنية "فيديو كول "وبعد أن اطمأن عليهم وطمأنهم على أحواله المستقرة في رعاية صبري ابن صديق عمره كامل المصري. يجلس علام بجوار النافذة؛ يرنو إلى الوجوه في الحارة، حوله شقشقة العصافير، في ذلك البيت المتهالك القديم، تعانق رائحة الكتب أبخرة قهوته، تتناثر زخات المطر على زجاج النافذة، تتوه كل الوجوه إلا وجوه رفاق العمر تناجيه ينصت لحديث أيامهم العذب؛ تسيطر على علام في ذلك اليوم حالة غريبة لم تمر به من قبل؛ يسرع لمكتبه وقد وضع أمامه البرواز الذي يحمل صورة الرفاق يمسك بقلمه يكتب الفصل الأخير في الأجندة وما أن ينتهي من الصفحة الأخيرة فيها يغلقها ثم يحمد الله أن تحقق أمله. يمسك بورقة ليكتب رسالة لصبري وبعد أن انتهى منها ينهض من مكتبه يجلس على الفوتيه بجوار المسجل يبحث في أشرطة الكاسيت فيمسك بشريط لأم كلثوم يضعه في باب الكاسيت يديره. فإذا بصوت أم كلثوم تصدح بصوتها الشجي:

- وآه يا ليلي آه.. ع الوعد والمقسوم
- لا تحوشه، لأ ولا آه ما بين عيون وقلوب
- وحكم علينا الهوى
- نعشق سوى ونذوب
- صدق اللي قال الهوى.. فوق الجبين مكتوب

يسند رأسه على المسند تتعلق عيناه بسقف الحجرة تعلو وجهه ابتسامة كمن رأى ما يسعده أمامه.

في الصباح يتلقى صبري اتصالا من وكيل المكتب يخبره بنبأ وفاة عم علام يهرع صبري على بيت علام ويبدأ في إجراءات الجنازة. يجري صبري اتصالاته ليخبر أهل علام وبعد صلاة العصر في مقابر العامود وفي مقبرة كامل والد صبري تم دفن علام يقف على القبر صبري وزوجته وأولاده على القبر يصحبهم بعض الجيران. على بعد أمتار قليلة منهم يقف رجل مسن يمسك بعصاته تنسال الدموع من عينيه أمام قبر مكتوب عليه صباح عبده وتحتها مكتوب نعمة عبد المقصود وإلى جواره قبر مكتوب عليه لمعي السيد المناديلي وتحته مكتوب فكري صابر يربت على كتفه شاب يافع يواسيه:

- تعيش وتفتكر يا بابا. الله يرحمهم جميعا.

وبينما هما ينصرفان يستدير المسن لصبري الذي ازداد بكاؤه يعزيه قائلا:

- كلنا لها. شد حيلك يا ابني.
- غفر الله ذنبك يا حاج.

لا يعرف أحدهما الآخر، وينصرف الجميع من مقابر العامود كلا في طريقه.
يتحدث المسن لابنه وهو يركب السيارة:

- هل اتصلت بأخيك؟
- نعم هو في المحل الآن.
- إذن هيا بنا على المحل؛ فعندي حديث مهم لكما.

ينطلق الابن بالسيارة وفي الطريق:

- ماذا تريد منا يا أبي.
- لي أمنية أرجو أن تساعداني عليها. أريد تغيير اسم المحل من محل أليكو إلى محل فكري للملابس الجاهزة.
- كل ما تحب ننفذه يا أبي. نحن طوع أمرك.
- ربنا يريح بالكم يا ابني.

يعود الجميع كلا إلى بيته، وتعود الحياة سيرتها الأولى. في مساء اليوم التالي يجلس صبري في مكتبه وحده ينادي وكيله قائلا له:

- اغلق المكتب وانصرف؛ سأبقى وحدي بعض الوقت.

ينصرف وكيل المكتب. يطفئ صبري الأنوار إلا أباچورة المكتب. ينظر لساعة الحائط التي تشير إلى العاشرة. يفض الرسالة التي تركها له عم علام فتنساب إليه الكلمات بصوت عم علام يقول فيها:

- ولدي الحبيب صبري أسعدني لقاؤك عندما عدت إلى الإسكندرية فأنت بعض من الأحباب رفاق العمر فيك عطرهم الذي حرمت منه في سنين الغربة. أهديك صورتنا متمنيا عليك ألا تفرط فيها أبدا، وتلك الأچندة قد صارت ملكا لك الآن فأنت أحق بها من غيرك؛ فيها كتبت سيرة أناس بسطاء عاشوا على هذه الأرض بعد أن لفظتهم أرحام أمهاتهم؛ لتضمهم الأيام في قسوة. تدفعهم إلى أتون الحياة؛ تشق جلودهم بأظافرها خلال سنين عمرهم الموحلة التي يشقون فيها طريقهم الوعرة إلى قبور تتلقفهم أفواهها؛ فطواهم النسيان كما تطوي السنوات الأيام. والسلام ختام" علام الرشيدي ".

تنساب الدموع من عيني صبري؛ يمسح دموعه، وينزع اللفافة عن برواز الصورة يتأمل وجوه من فيها يتملكه الشجن لرحيل أصحاب تلك الوجوه المبتسمة للحياة. تقع عيناه على الأچندة التي أوصى بها علام له مع البرواز.

يفتح صبري الأجندة يبدأ القراءة فيها فيمر الوقت وهو مستغرق في القراءة. فإذا بنور الصباح يطرق زجاج النافذة وهو في الصفحة الأخيرة فينساب إلى أذنيه صوت علام يقرأ له الكلمات الأخيرة والتي كتبها قبل وفاته بيوم واحد:

« ابتعدت عن وطني لأعوام متتالية مختفيا في شرنقة الغربة. لم يخطر في بالي من قبل أن أختار الابتعاد عنه والاختفاء طوعا، ولم أسع إلى ذلك على الإطلاق، وإنما هي تصاريف الزمن التي تختار لنا دوما رغم أن لنا مطلق الحرية في الاختيار. إلا أنني استسلمت لها بإرادتي وبدافع من مسئوليتي تجاه أحفادي؛ فتحولت إلى إنسان يمارس وجوده في الحياة وعليه أن يؤدي الدور المكتوب له بإتقان. كنت على يقين من أن إحساسي بالعودة لابد يوما سيأتي. دائما كنت متأكدا بأنني لن أفقد وسيلة للنجاة من دوامة الغربة رغم يقيني بدنو الليل الذي سيأتي ويطويني كما طوى الأولين. في الغربة كان جسدي يرافق طيف الأحباب، وروحي تعبر معهم المسافات البعيدة إلى حيث الوطن وأيامنا الجميلة؛ فكانت الذكريات التي دونتها من قبل هي السلوى الوحيدة في ليالي الغربة، وطوق النجاة الذي سأبلغ به أمل العودة يوما ما، وها أنا الآن قد عدت من الغربة لأجد نفسي في غربة من نوع آخر؛ فقد غادر الأحباب ظهر الأرض وباتوا تحتها، وتركوا لي الوحدة والذكريات حتى ألقاهم مرة أخرى ولكن حتما سيكون لقاؤنا هذه المرة تحت الأرض. لقد تركت هذه الصفحة فارغة طوال تلك السنوات الغابرة حتى استحالت إلى اصفرار يقينا مني بأنني سأكتبها عند عودتي للإسكندرية وقد وجدت الليلة أن لقائي برفاق العمر صار قاب قوسين أو أدنى فكتبتها مخافة أن تسبقني خطوات الزمن. علام الرشيدي - الإسكندرية.»

لا يتمالك صبري نفسه تنساب دموعه على خديه. يمسك بالبرواز؛ يتأمله، ثم يعلقه في مكان بارز داخل مكتبه، ثم ينظر لساعة الحائط. فإذا بها تشير إلى السابعة صباحا يغلق الأجندة يفرد كفه عليها. يرفع قامته تتعلق عيناه بالصورة التي جمعت رفاق العمر في لحظة سعادة، وقد علت وجوههم جميعا البسمة الصافية.

(تمت)

المؤلف: سمير لوبه

مواليد الإسكندرية ١٩٧٠

تخرج في كلية الآداب جامعة الإسكندرية

صدر له:

- كواليس مجموعة قصصية
- البحر بيضحك ليه مجموعة قصصية
- إحساس مجموعة قصصية
- المتاحة مجموعة قصصية
- قراءات إبحار في قراءات نقدية